لمحات من التاريخ المصري القديم

تأليف

د. عبد المنعم أبو بكر

أستاذ التاريخ المصري القديم

الكتاب: لمحات من التاريخ المصري القديم

الكاتب: د.عبد المنعم أبو بكر

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية



هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

أبو بكر، عبد المنعم

لمحات من التاريخ المصري القديم/ د.عبد المنعم أبو بكر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٤ – ٤٢٤ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٨٩٤٨ / ٢٠٢١

لمحات من التاريخ المصري القديم





التاريخ المصري

مقدمة

التاريخ من أهم الدراسات التي تساعدنا على تحليل عوامل البيئة وعلى إظهار الأسباب التي دعت إلى تطور معيشة الإنسان الذي بدأ حياته بأن سكن الكهوف والمغاور ثم تقدم في سبل حياته فنزل إلى الوديان الواسعة ثم تعلم الزراعة فأجبر على الاستقرار في منطقة واحدة وهنا اندمج الفرد في الجماعة والجماعة في الحكومة.

ودراسة التاريخ القديم تختلف عن دراسة التاريخ الحديث في شيء واحد هو أن الوثائق ليست فقط المرجع الوحيد للمؤرخ بل كل ما يحيط بالإنسان من آثار. فنحن في دراسة التاريخ القديم يهمنا أن نتتبع الإنسان منذ عاش في الكهوف. ندرس ما خلفه لنا من آلات استعملها في الصيد والقنص كما ندرس عظام الحيوانات التي كان يعيش على لحمها وما نعثر عليه في هذه الكهوف من جماجم أو عظام هذا الإنسان.

في هذه العصور الأولى التي سبقت عصور الوثائق المكتوبة نعتمد في دراسة تاريخها على ما نعثر عليه من أدوات الصوان ومن بقايا الأواني الفخارية. وفي هذه البقايا نجد معلومات وافية عن مدنيات هذه العصور الغابرة وتطورها وعن اتصال الشعوب بعضها بالبعض الآخر.

ومن هذا نرى أن المؤرخ يجب أن يستعين ببعض العلوم لدراسة

العصور القديمة. هذه العلوم هي علم الآثار وعلم الإنسان وعلم طبقات الأرض.

وعلم الآثار علم حديث العهد في مصر اتجهت إليه الأنظار منذ قرن واحد. وكان هذا العلم إلى أعوام قليلة موقوفاً على الأجانب ونحن لا ننكر أن للأجانب الفضل الأكبر في إنماء هذا العلم فجهودهم معروفة وأبحاثهم لا تزال المورد الوحيد لكل من أراد أن يدرس آثار مصر. ولكن المصري بدأ يشارك الأجنبي في اهتمامه بهذا العلم وخصوصا فيما يتعلق بآثار مصر. وحفائر كلية الآداب سواء في الهرم أو في المعادي أو في تونة الجبل أكبر دليل على نشاط المصري وعلى أنه لا يقل عن زميله الأجنبي في علمه وتعمقه في دراسته.

مصر في عصر ما قبل التاريخ

نقسم التاريخ المصري إلى قسمين أساسيين:

١) عصر ما قبل التاريخ (أو عصر فجر التاريخ).

٢) العصر التاريخي.

ويبتدئ العصر التاريخي في الوقت الذي تمكن فيه المصري القديم أن يكتب بالخط الهيروغليفي ما يجول في فكره أو ما تعود أن ينطق به. وبضع نقوش مكتوبة تحدثنا عن الإنسان الذي قطن مصر في هذا العصر وتفسير ما كان عليه من حضارة انقشع لنا ما كان مظلما في التاريخ المصري ومن يبتدئ التاريخ. أما العصر الأول فهو العصر الذي لا نعتمد في دراسته إلى ما خلفه لنا المصري من أثار لا وجود لأي نقش عليها ولكنها تدلنا على حياته وتفسر لنا اعتقاداته ومبلغ تقدمه في حضارته.

ومن الصعب علينا أن تحدد مبدأ ظهور حضارة العصر الأول عصر التاريخ لأننا لا نعرف تماما متى استقر نهر النيل في حوضه الحالي ولأننا لا نجزم بالوقت الذي تمكن المصري فيه من استيطان الدلتا. نحن نعرف أن مصب النيل كان بالقرب من القاهرة وأن الدلتا أحدث في عمرها من وادي النيل إذ أنها لم تتكون إلا بتراكم الطمي بعضه فوق بعض وقد كان وادي غير صالح لسكنى الإنسان إذ كانت مياه النيل تغمره واضطر الإنسان إلى أن يلجأ إلى التلال والهضاب التي تحاذي وادي النيل ووجد

فيها مكاناً صالحا لسكناه ولم ينزل إلى الوادي ليستعمره إلا بعد أن استقر النيل في مجراه ولذلك نكتفي اليوم بأن نقول إن العصر فجر التاريخ انتهى حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م وهذا هو العام الذي بدأ فيه التاريخ المصري الذي نستند في تأريخه على وثائق مكتوبة.

ولقد كان عصر فجر التاريخ عصراً مظلما لم نتمكن من الاهتداء إلى دراسته دراسة وافية حتى للسنين العشرة الأخيرة وذلك بعد اهتم بعض العلماء بهذا العصر وقاموا بحفائر واسعة في المناطق التي كان يسكنها إنسان هذا العصر وكانت نتائج هذه الحفائر باهرة أعطتنا صورة تكاد تكون كاملة لتطور الحياة والحضارة خلال هذا العصر الطويل ثم جعلتنا نعتقد أن حضارة مصر في هذا العصر كانت حضارة مصرية بحتة لم تأت إليها من الشعوب المجاورة بل نكاد نؤكد أنها كذلك لم تأت مع الشعوب التي هاجرت أوطانها ونزلت أرض مصر كما كان يؤكد ذلك الأستاذ فلندرس بتري Tlinders Petrie من قبل وهذا الأستاذ كان من أوائل الذين قاموا بحفائر واسعة من عصر فجر التاريخ. وكان في كل مرة يعثر فيها على آثار تختلف في طابعها عما وجده من قبل يرجع ذلك إلى هبوط شعب آخر جديد أرض مصر له حضارة تختلف في طابعها عن حضارة المصريين وبذلك كان لا يفتأ من حين إلى آخر يتحدث عن جنس جديد وقام بعض العلماء بأبحاث أناتومية تشريحية كان من أثرها إلغاء نظرية بتري والاعتقاد بأن الشعب المصري في أول أمره كان قد استوطن مصر دفعة واحدة دون أن يتكون من عناصر مختلفة.

أقسام هذا العصر

نقسم عصر ما قبل التاريخ إلى ثلاثة أقسام شاملة:–

١) العصر الحجري القديم وفيه استعمل الإنسان آلات حجرية كبيرة لم يتقن صنعها كان يستغلها في المدافعة عن نفسه وفي الصيد وآثار هذا العصر نجدها في قرنة (بالقرب من الأقصر) وفي العباسية.

٢) العصر الحجري المتوسط وفي هذا العصر استعمل الإنسان آلات صغير في حجمها مصنوعة أيضاً من الحجر وآثار هذا العصر نجدها في حلوان ثم بالقرب من كوم امبو عند قرية السبيل ثم في الفيوم.

٣) العصر الحجري الحديث وهنا بدا الإنسان يتقدم في حضارته وطرق معيشته فهذب صنع آلات واستعمل الطمي في تكوين أنيته ونجد آثار هذا العصر في نقاده –بلاص– العمرة البلينة– والكاب.

وقد كان الجميع يعتقدون أن أثار عصر ما قبل التاريخ محصورة في مصر العليا ومصر الوسطى وإن الدلتا لم تشارك أقسام مصر الأخرى في حضارتها بل ظن الكثير أن الدلتا لم تكن لها حضارة البتة. حتى وفق الأستاذ يونكر في سنة ١٩٢٨ إلى العثور على بعض آثار من العصر الحجري الحديث في مرمدة بني سلامة غرب الدلتا وعلى بعد خمسين كيلو متر من القاهرة. وقام الأستاذ بحفائر هناك منذ عام ١٩٢٩ وأثبت أن للدلتا حضارة ترجع إلى هذا العصر.

وبعد أن تم اكتشاف آثار الدلتا يحق لنا الآن أن نقسم حضارة مصر

في العصر الحجري الحديث إلى قسمين:

أ- حضارة الشمال.

ب- حضارة الجنوب.

حضارة الشمال

ونجدها ممثلة كما قلنا في حفائر مرمدة بني سلامة. وفيها نرى أنا لإنسان عرف كيف يستغل الأرض بزرعها ثم كان يربي الحيوانات المنزلية مثل التيران والغنم والكلاب والخنازير ولم يترك الصيد بل كان لا يزال يصطاد الوحوش والسمك وحصان البحر وبهذا نرى واضحاً أن إنسان العصر الحجري الحديث بذ أخاه الذي عاش في العصور المتقدمة والذي اقتصر في معيشته على الصيد والقنص.

زرع إنسان الدلتا القمح في المزارع التي تحيط بقريته وبعد الحصد كان يجلب القمح ويخزنه في أكياس كبيرة موضوعة في حفر في الأرض. أما القرية فكانت مستديرة يحيط بها سور من جذوع الأشجار. يتوسط القرية "العشش" التي كانت أيضاً مستديرة سطحها عال يشبه "الشمسية" وجدرانها قليلة الارتفاع مصنوعة من القش. ثم في أيام الشتاء الباردة كانوا يلجأون إلى حجرات بيضاوية مبنية من الطمي ومدفونة إلى نصفها في الأرض وكانوا لا يبنون لها بابا بل كانوا يصعدون إليها ثم ينزلون فيها بواسطة سلم بسيط درجاته من عظام فرس البحر.

أما ما وجد من آلات استعملوها في حياتهم المنزلية فيدل على تقدم

حضارتهم وهذه الآلات كانت الخناجر والسكاكين والبلط من حجر الصوان ثم أوانيهم الفخارية كانت متعددة الأشكال منها ما يشبه الأطباق "والسلاطين" والزجاجات.

وهذه الحضارة مهمة جداً لأنها أرتنا لأول مرة طريقة جديدة في دفن الموتى فبينما اعتاد الناس في مصر العليا ومصر الوسطى دفن موتاهم في جبانات بعيدة عن قراهم نجد أن هذه العادة غير مستعملة في مرمدة فهنا كانت الموتى تدفن في وسط القرية وذلك لكي يشاركوا الأحياء في أكلهم وشربهم وفي أعيادهم وأغرب من هذا أنهم لم يضعوا مع الميت حاجياته الخصوصية على نحو ما كان يفعل مصري الجنوب في هذا العصر وكل المصريين القدماء في العصور التاريخية.

حضارة الجنوب

أ) مصر الوسطى

وهي جزء من المناطق التي تمت حضارتها بالصلة إلى حضارة الجنوب ونجدها ممثلة أولاً– في العمري "بالقرب من حلوان" وهي تشابه في بعض نواحيها حضارة "مرمدة" إذ أن العشش كانت أيضاً مستديرة ولكن المقابر كانت بعيدة عن القرية وكل مقبرة كان يعلوها تل صغير من الأحجار لتمييزها وبالقرب من كل مقبرة مربع يحيطه سور قليل الارتفاع من الحجر لاجتماع أهل الميت عند زيارتهم للمقبرة. وهنا بدأت عادة إعطاء الميت بعض حاجياته التي كان يعتز بها أثناء حياته.

ونجد أيضاً هذه الحضارة ممثلة في الفيوم: والحفائر في هذه المنطقة لم

تتم بعد وما وجد فيها يدل على أن التشابه بين حضارة الفيوم وحضارة مرمدة ضئيل وأقل بكثير من تشابههما بحضارة العمري.

ب) مصر العليا:

ونحن نتابع تقدمها في الحضارة الآتية:

١) حضارة تازا. ٢) حضارة البداري. ٣) حضارة نقادة الأولى. ٤) حضارة نقادة الثانية.

١- حضارة تازا

هذه الحضارة كانت غير متقدمة من الناحية الفنية سبقت حضارة البداري أوانيها الفخارية رديئة الصنع وأدوات الزينة كانت قليلة بسيطة غير متقنة لا تتعدى القواقع أو عظام الحيوانات أو الخرز المصنوع من العاج.

٢- حضارة البداري

وهي تلي حضارة تازا وعلى حضارة البداري هذه بنيت حضارة العصر التاريخي المصري ففيها تجد مبدأ تطور الحضارة وتقدمها خطوة خطوة حتى زهت في عصر الأسرات. وفي كل ناحية من نواحيها نجد مصرية المصري مطبوعة بطابعها المصري المحض. فالديانة وفن البناء وطريقة الدفن والاعتقاد في الحياة الأخرى. كل هذه الأشياء نجدها في تطورها الأولي ظاهرة من آثار هذه الحضارة.

كانت القرية حينئذ صغيرة في مساحتها و"العشة" بسيطة في طريقة

بنائها و"الشونة" كانت عبارة عن حفرة عميقة في الأرض تشبه عش النحل عرف أهل هذه الحضارة الزراعة وتربية الماشية والصيد والقنص وتمتاز هذه الحضارة عن حضارة الشمال الممثلة في مرمدة بما يأتي:-

١) استعمال السراير من الخشب وقاعدته مملوءة بالقش المجدول.

٢) استعمال وسائد من التيل أو من الجلد.

٣) تقدم صناعة الأواني الفخارية تقدما كبيرا فكانت الأواني محروقة حرقا جيداً دقيقة في صنعها رقيقة في شكلها.

٤) استعمال الحلس بكثرة منها القلائد والأساور والأقراط للأذن والأنف.

٥) الجبانات كانت قريبة من القرية والموتى كانوا يدفنون عادة على شكل القرفصاء ويوضعون في حصير والرأس على وسادة.

٦) وجود مقابر دفن فيها تيران وغزلان وهذا يدل على أن أهل هذه الحضارة عبدوا هذه الحيوانات وبذلك نرى عبادة الحيوانات المشهورة عند قدماء المصريين ممثلة في مظهرها البدائي في هذه الحضارة.

حضارتا نقادة:

اعتاد الأستاذ بتري أن يعتبرهما حضارة واحدة ولكننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن هذه الحضارة التي وجدت آثارها بكثرة بالقرب من قرية نقادة تنقسم إلى قسمين الثاني يكمل الأول ولذلك اعتدنا الآن أن نسمي القسم الأول حضارة نقادة الأولى والثانية حضارة نقادة الثانية.

وأول من قام بحفائر واسعة في هذه المنطقة هو الأستاذ بتري وكان ذلك في عام ١٨٩٥ وشاركه في هذه الحفائر الأستاذ Québell كويبل وكما ذكرت من قبل فوجئ بتري بأثار هذه المنطقة واعتبرها حضارة شعب جديد نزل أرض مصر واستوطن هذه الجهة وأسهب في ذلك وأرخ مجيئهم بعصر الأسرة السابعة ولكن بتري اضطر إلى تغيير نظريته واقتنع بأن هذه الحضارة ليست إلا حضارة مصرية لشعب مصري عاش في عصر فجر التاريخ.

ونظرا لكثرة ما عثر عليه من آثار في هذه المنطقة وللفرق الشاسع بين بعضها والبعض الآخر في طريقة الصنع وتقدم الفكرة بحيث إن كان من الواضح أن كل هذه الآثار لا يمكن أن تكون من عصر واحد، ولكي يجد حلا لترتيب تطور درجات هذه الحضارة ترتيبا تاريخيا قام بعمل نظرية مشهورة وهي تسمى التأريخ المتتابع ، وذلك أنه قسم حفائره إلى طبقات وعمل جدولا بما يعتر عليه من آثار في كل مقبرة تقع في طبقة من الطبقات التي قسم إليها حقل الحفائر وفي هذا الجدول دون عدد الآثار التي عثر عليها وخصوصا عدد الأواني الفخارية وشكل كل آنية. ثم قسم هذا الجدول إلى مائة قسم ترك من واحد إلى ٣٠ لما عساه أن يعتر عليه في المستقبل ثم من ٣٠ إلى ٨ لآثار هذا العصر ومن ٨٠ إلى ١٠٠ تركه أيضاً للمستقبل ثم وضع أشكال وأنواع الأواني الفخارية الغالبة الموجودة في أعمق الطبقات في ٣٠ ثم النادرة من هذه الأنواع والأشكال في ٣١ أو ٣٢ معتمدا على النظرية القائلة إن كثرة عدد الأواني في مقبرة تدل على قدم عصرها بالنسبة إلى الأواني الأقل عددا في هذه المقبرة وهكذا تدرج صاعدا في الطبقات.

حضارة نقادة الأولى

وقد وجدنا أن حضارة نقاده الأولى احتلت من جدوله من ٣٠ إلى ٣٩.

وأنواع الأواني الغالبة في هذا العصر هي:

١) النوع الأحمر.

٢) النوع الأحمر ذو الحرف الأسود.

٣) النوع الأحمر المرسوم عليه باللون الأبيض.

٤) النوع الأسود ذو الحفر البيضاء.

حضارة نقادة الثانية

تتشابه هذه الحضارة مع حضارة نقادة الأولى من أوجه عدة. وخصوصا من ناحية أن الأواني الفخارية كانت لا تزال تستعمل بكثرة فيها أيضاً. غير أنه ظهر في هذه الحضارة نوعان آخران من الأواني.

١) أواني ذات آذان مموجة.

٢) أواني صفراء أو حمراء مرسوم عليها بالأحمر الغامق "القاني".

وهناك من يؤكد أن حضارة نقاده الثانية منشأها الدلتا وأنا أميل إلى الاعتقاد بهذه النظرية وها هي ذي الأسباب التي تؤكدها.

أولا: من بين آثار هذه الحضارة نجد صولجانا يشبه الكمثرى وهذا النوع لم يظهر في حضارة تازا أو حضارة البداري أو نقاده الأولى بينما ظهر في حضارة مرمدة "بني سلامة" في عصر يسبق هذا العصر بمئات السنين:

وهنا تجب الملاحظة بأن صولجان حضارة نقادة الأولى كان يشبه الطبق.

ثانياً: انتشار الأواني الفخارية المسماة بالأواني ذات الآذان المموجة في منطقة فلسطين وهذا يدل على أنها ظهرت في الدلتا ثم انتشرت شمالا وجنوبا مع ملاحظة أن هذا النوع من الفخار لم يظهر في شمال أفريقية أو بين شعوب آسيا القريبة.

ثالثا: الأواني الصفراء والحمراء المرسوم عليها باللون الأحمر الغامق كانت تحوي مناظر تدل على أن منشأها الدلتا. فمثلا رسومات القوارب المتعددة تدل على أنها كانت تستعمل عند قوم تعودوا أن يجولوا مناطق مملوءة بالمياه. ثم على سارية كل قارب من هذه القوارب علامة للإقليم التابع له هذا القارب وإذا جمعنا كل هذه العلامات وعددها ١٨٨ علامة وجدنا أن ١٩٦ منها تدلنا على أقاليم واقعة في الدلتا.

رابعاً: أواني عصر حضارة نقادة الأولى المرسوم عليها بالأبيض كانت تصور حيوانات أفريقية مثل الفيل والزرافة وفرس البحر مع أن هذه الحيوانات لم تصور قط على أواني حضارة نقادة الثانية.

خامسا: ظهر بين آثار حضارة نقادة الثانية نوع من الفخار المطلي بطبقة ملونة لونها أخضر وهو ما نسميه بالخزف واسم هذا النوع باللغة المصرية تحي نو الذي يطلق أيضاً على وادي النطرون في غرب الدلتا. ولعل ذلك لأن صنع هناك لأول مرة ويشبه ذلك تسمية "الصيني" باسم البلد "الصين" الذي اكتشف وصنع فيها لأول مرة.

عصر ما قبل التاريخ في نوبيا

بلاد النوبة

ظهرت في نوبيا حضارة معاصرة لحضارة البداري وتشابهها كل الشبه وخصوصا في كثرة الأواني الحمراء ذات الطرف الأسود **Black Aoppes**.

وهذا يدلنا على أن حضارة البداري انتشرت في مصر ونوبيا على حد سواء وهذا أمر ليس بالغريب فحضارة البداري اختص بها الجنوب في مصر.

بعد ذلك تأثرت نوبيا بحضارة نقادة الثانية وكان هذا التأثر متأخراً ثم من الغريب أن نوبيا لم تشارك مصر بعد ذلك في تقدمها السريع بل وقفت ومما يدهشنا أن وقوفها هذا أو قل جمودها بلغ إلى عام ٢٠٠٠ ق.م إذ أننا وجدنا في نوبيا الجنوبية في عصر الدولة المتوسطة أواني فخارية لا يمكننا أن نضعها إلا في عصر نقادة الثانية في مصر.

تأريخ عصر ما قبل التاريخ

ونقصد بالتأريخ تحديد البدء والنهاية لأقسام هذا العصر بالسنين.

ولقد سبق أن تحدثت عن هذا التاريخ وقلت أنه من الصعب علينا أن نؤرخ عصور تاريخ مصر في عصر ما قبل التاريخ وقلت أيضاً إنه من المهم أن نعرف أنه انتهى عام ٣٢٠٠ ق.م ولكن هناك من حاول تأريخ هذا العصر المظلم على حد التقريب وهو كما يأتي:-

١) العصر الحجري القديم ما بين سنة ٨٠٠٠ ق.م، ٧٠٠٠ ق.م.

٢) العصر الحجري المتوسط ما بين ٧٠٠٠ ق.م، ٦٠٠٠ ق.م.

٣) العصر الحجري الحديث ما بين سنة ٥٠٠٠ حتى ٣٢٠٠ ق.م.

وعلى ذلك تكون المدة ما بين ٦٠٠٠، ٥٠٠٠ فترة تطور ولعلنا نرى هذا التطور مبينا أوضح تبيين في المقارنة بين آثار العصرين المتوسط والحديث. إذ نجد الفرق كبيرا إلى درجة تحمل على الاعتقاد بأن هناك حلقات في سلسلة التطور الطبيعي قد سقطت فلابد من تقدير فترة مناسبة تكفي لاتصال اللاحق بالسابق.

مصر وحضارتها

لقد صدق الذي قال إن مصر منحة النيل: فكلنا يعرف أن النيل أنجب مصر وهو الذي يمدها بالحياة، مصر وهي هذه الواحة الكبيرة الممتدة امتدادا طويلا. قد حوت شعبا يعد أول شعوب الأرض حضارة وتمدينا. فالحضارة المصرية غذت شعوب الأرض وعلى أسس هذه الحضارة الرائعة بنى أهل اليونان حضارتهم التي يعتز بها إلى الآن شعوب أوروبا ويرجعون حضاراتهم إليها.

وطابع المدنية المصرية لا يمكننا أن نصفه إلا بأنه طابع نيلي زراعي فالنيل في خطره الداهم وفيضانه الموسمي الذي إذا لم ينظم أصبح كارثة بدلا من نعمة ثم في امتداده الطويل واختراقه لكل المناطق المصرية أصبح الطريق الوحيد للمواصلات وقد أجبر النيل المصري من ناحية على التعاون والاتحاد

لكي يتقي شر فيضانه ولكي ينظم هذه النعمة التي خلقت له واديه والتي إذا لم يعرف كيف ينظمها انقلبت شراً وهدمت له قراه وأغرقت حقوله ثم من ناحية أخر سهل النيل على المصري التعاون والاتحاد إذ أنه أسهل وأحسن طريق يوصل بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال.

ثم أرض مصر الخصبة الغنية بمحصولاتها جعلت المصري رجل سلام لا يحب التنقل ولا يفكر في الهجرة وجعلته أيضاً يتقدم في حضارته تقدما سريعا فالكسب الهين والحياة السهلة لا تعوق الفنان عن عمله.

عاشت المدنية المصرية مدة لا تقل عن أربعة آلاف سنة. ويمكننا أن نؤكد أن مصر طوال هذه القرون العديدة أعطت أكثر مما أخذت فهي أول من قدم للعالم ثمارا يانعة لتفكير طويل وجهود جبارة، في مصر اخترعت الكتابة وأصبح الإنسان قادرا على تدوين ما ينطق به وأهمية هذا الاختراع ظاهرة لا تحتاج إلى بيان ثم في مصر ظهرت القوانين وعلوم الكميا والهندسة والطب والحساب والعلوم الفلكية ثم الفن المصري الرائع سواء في التماثيل أو في الرسومات البارزة كل هذا معروف لا يرتاب فيه أحد.

ويمكننا أن نقول أن مصر هي أول من نادى بكلمة الحق والواجب فللحق إله بين آلهة المصريين والواجب من أمجد الصفات عند المصريين القدماء.

هذه الأمة عاشت حتى هرمت وظهرت أمم أخرى مجاورة عرفت الحياة بعد أن تمسكت بأهداب الحضارة المصرية وحذت في تكوينها حذو مصر.

ثم دارت الدوائر على مصر وسقط منها علم القياد وهاجمتها شعوب فتية فبدأ الغزو الأشوريون ثم الفرس ثم اليونان فالرومان. وحلت الديانة المسحية محل عبادة رع وأوزوريس ثم العرب فدخل الدين الإسلامي أرض مصر وأدخل معه اللغة العربية وأصبحت هذه اللغة بعد وهلة لغة البلاد حتى خيل للبعض أن حلقة الاتصال بين مصرنا الآن ومصر الفرعونية قد قطعت ولكن هذا خطأ فإنه إذا كان ديننا الإسلام وإذا تحدثنا باللغة العربية فنحن كنا ولا زلنا مصريين بل أن طرق تفكيرنا والتعبير عن أنفسنا تمت بصلة كبيرة محسوسة إلى المصريين القدماء ثم هناك عادات كثيرة بقيت منذ عصر بناة الأهرام إلى عصرنا هذا نقوم بها ونسير عليها دون أن نعرف أن هذه العادات مصرية قديمة.

ولعل من الطريف أن نذكر لكم بعض هذه العادات لترو إلى أي حد بلغت هذه الصلة بين ماضينا البعيد وحاضرنا الراهن.

فمن التعبير المصري القديم قولنا فلان قام قال كذا، ويسحب لسانه عليه، ويتف في عبه، كما أن اسم بتاو وبصارة وكلمة توت حاوي ولعبة الميس والسيجة كلها مصرية قديمة.

تقديس الشمس: لما كانت الشمس من الآلهة التي عبدها المصريون جميعاً منذ ظهور الحضارة المصرية إلى أن قضى على الديانة المصرية فقد ظلت في مصر بعض عادات تمت إليها بالصلة حتى اليوم: وأكبر: دليل على ذلك أن بعض الناس في الوجه البحري لا يزال يقسم القسم الآتي: "وحياة الشمس الحرة" (كما في بلدة سند بسط مركز زفتى)

وهناك من يقسم قائلا (وحياة اللي تشوفني ولا أشوفهاش) أما في الوجه القبلي فهناك من يقسم قائلا (وحياة البهية عندما تطلع من جبلها).

الشكوى إلى الشمس: وكانت العادة عند قدماء المصريين أن يتشاكوا إلى الشمس ويحكموها في أمورهم ومن بقايا هذه العادة ما يصنعه كل طفل مصري عندما تسقط سن من أسنانه. فيرمي هذه السن المخلوعة طالبا إلى الشمس أن تبدلها بسن أحسن منها فالولد يقول يا شمس يا شموسة خدي سن الحمار وهاتي سن الغزال أما البنت فتقول: يا شمس يا شموسة خدي سنة الجاموسة وهاتي سنة العروسة:

تقديس بعض الحيوانات: مثل ١ القطط (وكانت القطة تدعي بالمصرية القديمة باست ولا يزال الاسم باقيا في اسم البلد الذي كانت تعبد فيه وهي تل بسطه بالقرب من الزقازيق. ولا تزال القطة من الحيوانات المحبوبة جدا في مصر ومن الغريب ما نقوله عنها. إن القطة بسبع أرواح وهذا ما كان يعتقده المصري في القطة التي كان يتمثل فيها الآلة رع وهو الذي كان معروفا في المتون المصرية بأن له سبعة أراح) ثم مثل ٢ التمساح الذي بقى احترامه حتى يومنا هذا فنرى بعض البيوت المصرية الحديثة تعلقه على واجهاتها صنعا للشر وتيمنا به ويشاهد ذلك في معظم جهات القطر مع العلم بأن هذا الحيوان أصبح معدوما في كل جهات القطر المصري ولا نجده اليوم إلا في أعالي النيل.

ثم الثعبان وعبادته وتقديسه في مصر القديمة معروف مشهور وبقي هذا التقديس إلى يومنا هذا في العادة الغريبة التي نؤمن بها وهي أن

لكل بيت حارسا وهذا الحارس هو ثعبان ضخم كبير يغالي بعض الناس حتى يقدم إليه اللبن يوميا.

أما تقديس الأشجار التي كانت تعبد في مصر القديمة فهو شيء نشاهده.

٤) أما تقديس الأشجار التي كانت تعبد في مصر القديمة فهو شيء نشاهده كل يوم. وأهم الأشجار التي تقدس في مصر هي الجميزة والنخلة والسنطة وأهم الأشجار احتراما هي شجرة الجميزة واحترامها شائع في كل جهات القطر إذ قلما نجد جبانة دون أن يكون في وسطها أو على حافتها شجرة جميز ويعتقد العامة أن قطع الجميزة من الأشياء المحرمة لأنها تروي الموتى وتظللهم.

أما العادات المأتمية فأكثرها مصري قديم:- فتغسيل الميت عادة إسلامية ولكن غسل الميت بماء الورد عادة مصرية (جاء هذا في ورقة اللوفر البردية ترجمها **Maspero**) وأحياناً نجد في الوجه القبلي بعض القرى تغسل موتاها بمنقوع ماء النبق وقد عثر على نقوش تثبت ذلك في متون الأهرام ولا زلنا نعتقد أن أكل النبق مطهر للفم.

ثم عادة قراءة العتاقة للميت مصرية قديمة ولكن هناك بعض الناس يقيم لنفسه عتاقة قبل مماته فيأتي بالفقهاء الذين يقرأون الصمدية ومعهم خيط طويل وفي كل دفعة تعقد عقدة حتى تصل العقد إلى عدد محدود ويحتفظ بهذا الخيط لكي يدفن معه.

وكذلك الذبيحة. وتسمى كفارة أو ونيسة.

كسر القوارة:

كان قدماء المصريين يكسرون وراء الميت عند خروجه من البيت إناء ويضعونه معه في قبره منعاً من أن تعود قرينته إلى الأحياء فتؤذيهم. وهذه العادة موجودة لدينا سواء عند الأحياء حتى لا يعود الزائر الثقيل أو وراء الميت إذا كان قد مات قتيلا حتى لا ترجع روحه لتؤذي الأحياء.

ثم الاحتفال بالدفن وتوزيع الرحمة: وقولهم رحمة ونور على روح الميت.

جهاد مصر في سبيل الاتحاد

طبيعة مصر وامتدادها الطويل لم تسهل في أول الأمر أن تتجاور مقاطعتان في منطقة واحدة وخصوصاً في مصر العليا. وعندنا من الدلائل ما يجعلنا نعتقد أن مصر كانت حتى عصر فجر التاريخ مقسمة إلى طوائف أو جماعات تسكن كل جماعة منها منطقة محدودة. ولم يسهل التجاور بين هذه الجماعات ومناطقهم. سهل في الدلتا إذ أن طبيعتها سمحت بذلك. فمساحتها من الشرق إلى الغرب كانت متسعة اتساعها من الشمال إلى الجنوب. وكل منطقة من هذه المناطق كانت تسكنها جماعة وقبيلة يحكمها حاكم ولكل حاكم رمز أو شعار خاص به اتفق العلماء على تسميته توتم هذا الشعار يمثل قوة فعالة مقدسة تكون مصدر حياة وحركة للمنتسبين إليه.

ويختلف الشعار أو التوتم باختلاف القبائل ومقاطعاتها. ولقد كان في مصر في العصر التاريخي ٤٢ مقاطعة نظن أنها كانت في الأصل الأقاليم

المختلفة التي كانت تسكنها القبائل قبل اتحادها. ويختلف التوتم أيضاً في شكله ونوعه فقد يكون شجرة مثل شجرة الجميز أو طائراً كبيراً مثل الصقر أو أبي قردان.

وكنا نعتقد إلى عهد قريب أن مينا هو أول ملك حكم مصر ووحد أقاليمها وأنه أول من ركز الملكية في مصر ولكننا عثرنا على حجر تاريخي من عصر الأسرة الخامسة دون علية أحد ملوكها أسماء أجداده ملوك مصر وكم كانت دهشتنا أن هذا الحجر ذكر أسماء ملوك عدة سبقوا حكم مينا. وهذا جعلنا نرجع إلى بحث كل ما كتب في العصر التاريخي من المصريين القدماء أنفسهم وما خلفوه لنا من قصص ديني خاص بهذا العصر الغامض.

وأصبح الآن من المؤكد أن مصر وحدت قبل عصر مينا ثم انقسمت على نفسها ثم أتى الملك مينا ووحدها للمرة الثانية.

ومما يستلفت النظر من بين القصص المصرية المعروفة قصة أوزوريس إذ تزاوج الإله جب (إله الأرض) مع الآلهة نوت (آلهة السماء) ثم ولد لهذين الزوجين أولاد أربعة هم أوزوريس وزيت وايزيس وتفتيس.

أما أوزوريس فورث عن أبيه عرش الدنيا وكان عادلا محبوبا أحسن سياسة الملك، وعلم الشعب الزرع وشرع له الأحكام والقوانين بينما أخوه زيت كره أن يؤول الملك إلى أوزوريس ويبقى هو حاكما لمدينة الجنوب فقط بينما أخوه في أول أمره كان يحكم مثله مدينة في الشمال.

كاد زيث لأخيه مكيدة ودعاه لكي يحضر معه وليمة وكان قد صاغ له تابوتاً من الذهب وبعد أن جلس الناس يتسامرون وفرغوا من أكلهم ولهوهم جيء بالتابوت وأظهر الملأ إعجابهم به وتسابقوا في الاضطجاع فيه حتى إذا جاء دور أوزوريس واضطجع فيه أسرع زيث بإغلاق التابوت وإحكام غطائه عليه ثم رموا بالتابوت في النيل وحملته الأمواج إلى البحر الأبيض ثم إلى بلاد سوريا ثم قذفت به الأمواج على ساحل (جبلين) وما كاد التابوت يستقر على الشاطئ حتى نبتت شجرة كبيرة أظلته وحفته عن عين الرقباء. وبعد حين مر بالشاطئ حاكم (جبلين) فراقته الشجرة فأمر بنقلها وفيها التابوت الذهبي إلى قصره.

أما إيزيس فقد ذهبت تبحث عن أخيها وزوجها في كل مكان حتى قدر لها العثور على الشجرة في قصر الحاكم وما زالت هناك حتى تمكنت من نقل التابوت إلى مصر ووضعته في مكان أمين بين أحراش الدلتا وبقيت بجانبه مدة تندبة وتبكيه ثم تركته إلى حين لكي تذهب إلى وحيدها حوريس الذي بقى في مدينة Buto بوتو.

وبينما هي مع ولدها حوريس إذا بزيث يعثر أثناء تجواله في أحراش الدلتا على تابوت أخيه فيتور لذلك ويخرج الجثة ويمزقها ويرمي بكل جزء منها في إقليم من أقاليم مصر.

وبعد أن ترعرع حوريس قام لينتقم لأبيه وبعد نزاع طويل وكفاح مر تمكن من استرداد الملك وأصبح بذلك ملك مصر بأجمعها.

إننا إذا تأملنا في هذه القصة التي أصبحت فيما بعد قصة دينية

تحدثنا عن الآلهة أوزوريس وزيث وحوريس وازيس نجدها تحدثنا عن الحالة السياسية في عصر فجر التاريخ. فالإله أوزوريس كان مقره شرق الدلتا وحوريس غرب الدلتا وزيث مقره مصر العليا.

وفي هذه الحالة يمكننا أن نفسر هذه القصة بأن أشد حكام الجنوب تمكن من مهاجمة الدلتا وقوض أركان حكم ملكها ويعد وهلة تمكن أحد حكام شرق الدلتا من إرجاع السلطة ومن توحيد الجنوب مع الشمال.

ثم هناك أدلة أخرى تدلنا على أن الحالة السياسية في هذا العصر تطابق ما استنتجناه من هذه القصة.

١) عبادة أوزوريس كان منشأها الدلتا ثم استقرت بعد ذلك في مصر العليا في أبيدوس (العرابة المدفونة).

٢) انتشار حضارة نقادة الثانية في الوجه القبلي ولقد أثبتنا قبل ذلك أنها نشأت في الدلتا.

٣) ثم كان أوزوريس يلبس أولا تاجا مكوناً من ريشتين.

ثم لبس بعد ذلك حوريس تاجا مزدوجا مكونا من تاج الوجه القبلي وهو التاج الأبيض ومن الريشتين.

مصادر التاريخ المصري

الآن وقد تركنا فجر عصر التاريخ سنبدأ نشرع في العصر التاريخي وأعتقد أن كلا منكم سوف يتساءل: ما هي المصادر التي نستمد منها ما نعرفه عن مصر القديمة؟

هذه المصادر تنقسم إلى قسمين: الأول وهو أوثقهما ما خلفه لنا المصريون من آثار عديدة ونقوش لا تحصى وخصوصاً القوائم التي أراد بعض ملوك مصر أن يخلدوا عليها أسماء الملوك الذين سبقوهم في الحكم وهي:

١) أقدم هذه القوائم هي التي نسميها قائمة حجر بالرمو وهي التي تحدثت عنها فيما سبق وتذكر ملوك مصر حتى الأسرة الخامسة.

٢) قائمة ملوك أبيدوس وهناك نسختان منها إحداهما في متحف القاهرة والثانية في المتحف البريطاني. نقشتا في عصر الملك سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة (حوالي عام ١٣٢٠ ق.م) وذكر فيها أسماء الملوك الذين حكموا مصر من أول مينا حتى عصر سيتي الأول وحذفت من هذه القائمة أسماء الملوك الذين حكموا في عصر الهكسوس وكذلك أسماء عصر اخناتون ثم سمنخكارع وتوت عنخ أمون والملك إي. والسبب في ذلك واضح إذ أن ملوك الهكسوس كانوا أجانب دخلوا مصر غازين متعسفين ولا يمتون بأي صلة إلى مصر. أما عصر أخناتون فكان يعد عصر الملوك

الذين خرجوا على دين أمون وأدخلوا البدعة الجديدة في رأي المصريين وهي عبادة الإله آتون وتوحيد الآلهة في مصر.

٣) قائمة ورقة ثورين البردية: كتبت هذه الورقة البردية أيضا في عصر الأسرة التاسعة عشر وهي تمتاز بذكر أسماء الملوك ومدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم ولقد ذكرت كل الأسماء ولم يحذف أي عصر ولكن نأسف لأن هذه الورقة البردية ممزقة شر تمزيق ولقد ضاع جزء كبير منها ولكن مع هذا ساعدنا ما تبقى منها على معرفة أسماء ملوك عصر الهكسوس وكذلك ملوك الدولة الوسطى الذين ذكرتهم الورقة وحفظ الجزء المكتوب عليه هذه الأسماء تمام الحفظ.

٤) قائمة سقارة: كتبت على جدران مقبرة لأمير عاش في عصر الملك رمسيس الثاني (١٣٠٠ إلى ١٢٣٤ ق.م) ولقد حذف هنا عصر الاضمحلال الأول وعصر الاضمحلال الثاني (وهو عصر الهكسوس).

٥) قائمة الكرنك: كتبت في عصر الملك تحتمس الثالث (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر) (حوالي عام ١٥٠١ إلى ١٤٤٧) وهو الجدول الوحيد من عصر هذه الأسرة ولقد أخطأ كاتبه كثيراً في ترتيب الملوك وتقسيم الأسر فكتب ملوك الأسرة الثالثة عشرة بعد ملوك الأسرة الخامسة. ثم ملوك الأسرة الحادية عشرة بعد ملوك الأسرة الثامنة عشرة. أما ملوك الأسرة الثانية عشرة فقد أخطأ في ترتيبهم بأن جعل آخر ملوك الأسرة أول ملوكها وانتهى بأول ملوكها.

المصدر الثاني:

ويمدنا ببعض المعلومات التاريخية وهو ما وصل إلينا من نبذ عديد كتبها المؤرخون القدماء عن مصر في كتبهم التاريخية. وهؤلاء المؤرخون قدموا إلى مصر في عصر متأخر، ويجب ألا ننسى أن مصر في عصورها الأولى كانت مغلقة في وجه الأجانب الذين إن أتوا إلى مصر فهم يأتون فقط لمشاهدة معالم حضارتها وتمدينها وتقدم عمرانها وأول من سهل للأجنبي دخول مصر كان بسامتيك الأول أول ملوك الأسرة السادسة والعشرين (حوالي عام ٦٦٠ ق.م) والسبب في ذلك أن هذا الملك تبوأ عرش مصر بعد أن ساعده ملك اليونان بجيشه. وبعد النصر أدرك هذا الملك أن عرشه وأسرته لن يتمكنا من البقاء في مصر دون مساعدة الجند المرتزقة وعطف الشعب اليوناني عليه. فسمح لهؤلاء الجند بالبقاء في مصر وشجع اليونان على السفر إلى مصر فحضر إليها نفر كبير وأعجبوا بها وبحضارتها.

هذه البدعة الجديدة أجبرت المصري أن يفكر في طريقة يرضي بها أسئلة هؤلاء الزوار أو السياح. ولذلك نجد أن أول تاريخ كتب عن مصر كان مصدره هؤلاء التراجمة الذين كان من الصعب عليهم أن يخلصوا في مهنتهم إذ أن الأجنبي الذي يتكبد مشاق رحلة طويلة ويحضر إلى مصر يود أن يرى ويسمع فقط ما يلذ له سماعه وما يلذ للسائح يبعد كل البعد عن الحقائق التاريخية ودون لأول مرة هكاتييوس من مدينة ميليتي الذي زار مصر حوالي ٥٢٠ ق.م ما سمعه من تراجمة مصر في كتابه عن مشاهداته

فيها. ثم تبعه هيردوت (أتى إلى مصر حوالي عام ٤٣٠ ق.م) ونحن إذا اعتمدنا على هذين المصدرين فإنما نعتمد عليهما لأنهما يرياننا صورة واضحة لمصر في العصر الذي زار مصر فيه هؤلاء السياح أي العصر الأخير من تاريخها.

ومن أهم من كتبوا عن مصر كان مانيتون الذي كتب تاريخ مصر في ثلاثة أجزاء. ومانيتون عاش في عصر بطليموس الأول أي حوالي ٣٠٥ إلى ٢٨٥ ق.م وخصص هذا المؤرخ في كتابه هذا جزء للتاريخ وآخر للديانة وثالثاً للحياة الاجتماعية وملاحظاته الشخصية.

ومانيتون كان كاهنا مصرياً ولو أنه اعتمد أيضاً في كتابة تاريخه على ما كان يتناقله الشعب من أحاديث عن ملوك مصر القدماء وما كان معروفا عند كهنة هذا العصر من التاريخ القديم إلا أنه كان بلا نزاع أقرب إلى الحقيقة من هؤلاء الزوار اليونان الذين استقوا معلوماتهم من تراجمة الآثار.

ومما يؤسف له ضياع كتاب هذا المؤرخ فلم يصلنا منه إلا ما نقله عنه بعض المؤرخين الذين عاشوا بعده بسنين عدة إذ نقلوا بعض أجزاء من كتابه لكي يستشهدوا بها على نظريات أرادوا تحقيقها ومما يؤسف له أيضاً أن هؤلاء المؤرخين لم يهتموا إلا بالجزء المخصص لديانة قدماء المصريين. ولقد اهتم اليهود خصوصا بما كتبه مانيتون عن الديانة إذ أرادوا أن يظهروا هكسوس مصر بأنهم اليهود الذين طردوا في عصر الملك أحمس.

وأهم هؤلاء الكتاب:

١) يوسيفوس الذي كتب في آثار اليهود وعلق على ما كتبه مانيتون في طرد الهكسوس.

٢) يوليوس أفريكانوس.

٣) أويزيبيوس.

ولقد قسم مانيتون ملوك مصر إلى ٣٠ أسرة وأخذنا بنظريته وخصوصاً بعد أن وجدناها تنطبق على ما عثرنا عليه من آثار لهذا العصر الطويل.

ثم كتب في تاريخ مصر في أوائل ظهور المسيحية ديودور واسترابون.

عصور التاريخ المصري

نقسم التاريخ المصري إلى الأقسام الآتية:

١) عصر الأسرات الأولى ويشمل الأسرة الأولى والثانية.

٢) عصر الدولة القديمة ويشمل الأسرة الثالثة إلى آخر السادسة.

٣) عصر الاضمحلال الأول ويشمل الأسرة السابعة إلى آخر العاشرة.

٤) عصر الدولة الوسطى ويشمل الأسرة الحادية عشرة إلى آخر الأسرة الثالثة عشرة.

٥) عصر الاضمحلال الثاني (الهكسوس) يشمل الأسرة الرابعة عشرة إلى آخر الأسرة السادسة عشرة.

٦) عصر الدولة الحديثة ويشمل الأسرة السابعة عشرة إلى آخر الأسرة العشرين.

٧) عصر حكم الكهنة يشمل الأسرة الحادية والعشرين.

٨) عصر حكم الليبين يشمل الأسرة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين.

٩) عصر حكم النوبيين يشمل الأسرة الخامسة والعشرين.

١٠) العصر الصاوي يشمل الأسرة السادسة والعشرين.

١١) عصر حكم الفرس يشمل السابعة والعشرين إلى آخر الثلاثين.

١٢) عصر حكم اليونان وذلك بدخول إسكندر الأكبر حوالي عام ٣٣٢ ق.م.

١٣) عصر البطالسة من عام ٣٣٢ إلى ٣٠ ق.م.

١٤) العصر الروماني من عام ٣٠ ق.م إلى دخول العرب ٦٤١ ميلادية.

عصر الأسرات الأولى (الأولى والثانية)

لقد حدثتكم في دروسي السابقة عن توحيد القطرين في عصر فجر التاريخ وقلت أن أول محاولة لضم الجنوب إلى الشمال أتت في الدلتا وحكم مصر ملوك نسميهم ملوك مقاطعة الصقر وكانت عاصمة مصر في هذا الوقت (ونحن نؤرخ هذا الحادث بعام ٤٢٤٠ ق.م على وجه التقريب) هيليوبوليس. ثم ضعفت هذه الأسرة وانقسمت مصر مرة ثانية إلى جزئين: الوجه البحري والوجه القبلي.

وتقسيم مصر إلى وجهين أمر تحتمه طبيعتها، ومن الغريب أن كلا من الوجهين اعتز بتقاليده وحافظ على حضارته وساق هذا التعادل في القوة والمدنية إلى تشابه كبير بين الوجهين. فالوجه البحري كانت له عاصمتان: ١) بوتو ٢) بي والوجه القبلي نجد له عاصمتين أيضا: ١) نخبت ٢) ونخن. ثم في الشمال نجد أن الإله الذي يحمي العاصمة هو الحية (أوتو) بينما الجنوب له العقاب (نخبيت). والإله الذي يحمي دولة الشمال كان حوريس

الذي كان مقره دمنهور والإله الذي يحمي دولة الجنوب كان حوريس آخر ومقره أدفو.

ثم ملك الشمال كان يلبس تاجا أحمر.

بينما كان ملك الجنوب كان يلبس تاجاً أبيض.

ثم كان علم الشمال نبات البردي.

بينما كان علم الجنوب نباتا لعله القش.

ونحن إذا بدأنا الآن بتاريخ الأسرة الأولى فإنما نقصد بذلك تاريخ الأسرة التي وحدت مصر للمرة الثانية وقد أتى هذا التوحيد الثاني من الجنوب إذ قام به حكام مدينة طينة.

شن أحد حكام هذه المدينة الغارة على الدلتا واضطرها للخضوع وهذا الكفاح نجده ممثلا على صولجان هذا الحاكم وهو الذي أصبح معروفا في التاريخ بالملك العقرب. فنراه مصورا وعلى رأسه التاج الأبيض.

(تاج الوجه القبلي) وبيده فأس يهدم به حصون الوجه البحري.

أسماء ملوك هذا العصر

الأسرة الأولى:-

١) نارمرمينا (٢) عحا (٣) جر (٤) زت (الثعبان) (٥) دن (٦) عنج إيب (٧) سمرخت (٨) كع.

الأسرة الثانية:-

١) جتب سخموي (٢) نبرع (٣) نتر إن (٤) سخم إيب (٥) برايب سن (٦) خاسخموي.

وذكر مانيتون المؤرخ المصري في كتابه أن ملوك هاتين الأسرتين كان عددهم ثمانية عشر ملكا وأن مدة حكمهم ٤٠٠ سنة ولقد أثبتت الآثار التي عثرنا عليها من هذا العصر أن مانيتون لم يخطئ كثيراً في نظريته.

ولقد اقتطعنا هذا العصر من الدولة القديمة وسميناه عصر الأسرات الأولى ليس لأنه يقل في أهميته عن عصر الدولة القديمة بل لأنه ذو طابع خاص ولأنه كان العصر الذي اشتد فيه النزاع بين الوجه البحري والوجه القبلي والذي فيه كونت مصر لنفسها أسس الحضارة الزاهرة التي تباهي بها كل أمم التاريخ القديم.

إن التوحيد الثاني لم يتم إلا بعد حروب طويلة رأينا آثارها منتشرة في كل ما عثرنا عليه من وثائق مكتوبة من هذا العصر. وأهم ما وصل إلينا هو لوحة نارمر المحفوظة في المتحف المصري وهي من حجر الأردواز. ولقد مثل على إحدى جانبيها الملك نارمر متوجا بتاج الوجه القبلي قابضاً بيمينه على صوجان يهوى به على رأس العدو الجاثي بين قدميه. ثم أمام الملك نرى رمز المقاطعة التي خرج منها الملك وهو الصقر (أي الإله حوريس) يقدم إلى الملك ٦ آلاف أسير من سكان الدلتا. وفي أسفل هذا الجانب من اللوحة نرى أسيرين يهربان وذلك رمزا لهروب أعداء الملك أمام بطشه وعلى الجانب الثاني نجد الملك متوجا بتاج الوجه البحري الأحمر

خارجا من قصره وأمامه وزيره وأعلام القبائل التي اتحدت معه خرج ليتفقد قتلى الحرب بعد أن وطد ملكه وبطش بأعدائه. وبأسفل اللوحة نرى ثورا كاسرا يهدم بقرنيه قلاع الأعداء الذين يرمز إليهم بأسير ولي الفرار. هذا الثور الكاسر كان رمز الملك.

حجر بالرمو: ثم أشهر حوادث الأسرة الأولى والثانية دونت على الحجر التاريخي المحفوظ في متحف بالرمو. (ولقد عثر حديثا على قطعة حجر مكملة له محفوظة في متحف القاهرة ثم على قطع كثيرة وجدت في المقابر الملوكية في ابيدوس وسقارة.

آثار أخرى: والآن قد كثرة آثار هذا العصر بعد أن نجح المستر أمري ومساعده زكي أفندي سعد في حفائرهما من هذا العصر في سقارة.

وكما ذكرت كان من أهم الأمور التي اهتم بها كل من جلس على عرش مصر هي توطيد الحكم وإخضاع الثائرين على نظام وحدة السلطة وهناك دلائل عدة توضح لنا تماما كيف كانت سياسة الدولة في عصر هاتين الأسرتين متجهة بكليتها هذا الاتجاه.

من هذه الدلائل ١) استعان نارمر على إخضاع الشمال بأن تزاوج مع بيت من صا الحجر واسم السيدة التي تزوج منها نايت حيت.

٢) تزوج الملك زت بإحدى أميرات الوجه البحري واسمها مريت نايت وهي أم الملك دن.

٣) كانت العادة أن يضع كل ملك اسمه في مربع مرسوم على هيئة

واجهة القصر يعلوه الصقر وهو كما تعرفون إله المنطقة التي منها خرج الملك الذي وحد القطرين (نارمر).

ثم في عصر الأسرة الثانية وجدنا بعض الملوك وضعوا بدلا من الصقر حوريس صورة الإله زيث.

ثم وجدنا ملوكا آخرين من ملوك الأسرة الثانية وضعوا كلا الإلهين على هذا المربع وهذا دليل على أن كل ملك كان يعتز برمز الإله الخاص بمنطقته التي خرج منها ثم اتجه الملوك فيما بعد إلى التوفيق بين المقاطعتين المتنافستين على السلطة.

مميزات هذا العصر

١) **اللغة:** في عصر الأسرة الأولى والثانية تكونت لغة المصريين القدماء وأصبحوا قادرين على أن يعبروا بها عن كل ما يجول بنفوسهم وفي عصر الأسرة الثالثة أصبحت اللغة كاملة تحوي الأفعال والمصادر والمشتقات وهذه الخطوة نراها في تدرجها بشكل واضح إذ أنها كانت في أول أمرها لا يمكن التعبير بها إلا عن الأعلام فمثلا على لوحة الملك نارمر المحفوظة في متحف القاهرة كان كل ما أمكنهم أن يصلوا إليه هو أن يكتبوا اسم الملك واسم الوزير وأسماء المناطق التي انضمت إلى الملك ولم يكتبوا جملة تعبر عن هذا الحادث التاريخي بل اقتصروا على رسم هذا المنظر مع إيضاح الأشياء بأساميها. ولكن بعد ذلك في عصر الأسرة الثالثة نجد جملا تحوي أفعالا وأسماء وحروفا.

وعلى ذلك كانت اللغة المصرية في أول أمرها عبارة عن مجموعة صور ثم تقدمت وأصبحت كلمات.

٢) **أما في الفن:** فكانت آثار مصر في عصر فجر التاريخ تشابه آثار كل الأمم المجاورة ثم بدأت مصر تفصل نفسها عن هذه الأمم في العصر الذي سبق عصر الأسرات وكونت لنفسها فنا ذا طابع خاص له مميزات خاصة لم تتغير حتى آخر عصور التاريخ المصري القديم ظهرت بوادر هذا الطابع على لوحة الملك جر المحفوظة في المتحف المصري ثم على لوحة الملك زت المحفوظة في اللوفر.

٣) **أما الديانة المصرية** فلا يمكننا أن نحكم عليها حكمنا على الفن ولكن يمكننا أن نقول أن كل ما وصل إلينا عن هذه الديانة وجدت أصوله في عصر الأسرات الأولى.

مصر والأمم المجاورة لها في عصر الأسرتين الأولى والثانية

تحيط بمصر من الجنوب بلاد النوبة ومن الشمال الغربي ليبيا ومن الشرق البحر الأحمر الذي يفصل بلاد العرب عن مصر ثم من الشمال الشرقي شعوب الأسيويين.

ولم تتصل مصر ببلاد النوبة اتصالا وثيقا إلا في عصر الدولة القديمة فطبيعة الأرض في جنوب أسوان كانت ولا تزال جدبة لا خضرة فيها ثم أن النيل نفسه في هذه المنطقة تعترضه شلالات هائلة الحجم لا تسمح ألبتة لأي سفينة أن تعبرها ولكننا نعرف أن المناطق الواقعة بين الشلال الأول والثاني كانت مسكونة بقبائل من عصر حامي ليبي قريب من العنصر المصري له مدنية

تشبه مدنية مصر في عصر فجر التاريخ، ولكننا نلاحظ أن هذه المدنية لم تتقدم وتتطور كما كان حالها في مصر إذ أن البيئة هناك لم تساعد على هذا التطور، ولقد حدثتكم في محاضراتي عن عصر فجر التاريخ وقد عثرنا على آثار في بلاد النوبة من عصر نؤرخه بعصر الدولة المتوسطة ولكنها كانت تشابه في شكلها وطابعها آثار عصر حضارة نقادة الثانية في مصر.

لقب المصريون البلاد الواقعة بين الشلال الأول والثاني بمنطقة ستي كما سموا سكانها النحسيين.

ولما توغل المصريون العصور المتأخرة في بلاد النوبة فيما وراء الشلال الثاني تحدثوا عن منطقة اسمها خنتي حن نفر ثم كانت في جنوبها منطقة أخرى يسكنها شعب الكوش الذي يجاور بلاد الحبشة. وكانت هذه البلاد تقدم لمصر كميات وفيرة من الماشية والعاج والجلود والأشجار.

ثم كانت الحدود الغربية أيضا آهلة بالسكان الذين عاشوا على ما تنتجه أراضي الواحات (ولا يزال منها حتى الآن الواحات الخارجة والداخلة وفرافرة وسيوة) وكلمة واحة أصلها مصري قديم (وات) أخذها اليونان وأصبحت في لغتهم وازيز وكان يسكن هذه المناطق الغربية شعب اللبيين الذين يلقبون باسم تحنو وتدل آثار ملوك الأسرة الأولى على أن المصريين اشتبكوا معهم في حروب.

أما في الشمال الشرقي فكانت مصر محاطة بشعوب كثيرة ينتمون إلى الجنس السامي. وهؤلاء كانوا دائماً يشنون الغارة على مصر طامعين في خيراتها هاربين من بلادهم الفقيرة.

وكان المصري يسمي هذه الشعوب بأسماء مختلفة منها: حروشع (الذين يعيشون على الرمل أي البدو) ثم العامو والمنتيو.

ومصر كانت متصلة اتصالا وثيقا منذ عصر الأسرات الأولى ببلاد سوريا حيث كانوا يجلبون الأخشاب التي يستعملونها في إنشاء السفن وبناء المعابد ثم اتصلوا أيضاً بشبه جزيرة سينا حيث تكثر المعادن.

الديانة عند المصريين القدماء

نحن نعرف أن الإنسان والحيوان يشتركان في صفاتهما العامة وإنما ميز الله الأول على الثاني بميزة التفكير، ونعرف أيضاً أن الحيوان يصرخ ليعبر بذلك عما في داخله من شعور بينما الإنسان يتحدث، ونعرف كذلك أن الغريزة التي حملت الحيوان على أن يعيش في قطعان حملت الإنسان على أن يكون الأسرة ثم القبيلة ثم الأمة، كما أن الغريزة التي تدفع الحيوان إلى التناسل دفعت الإنسان إلى الحب والزواج، وكذلك نرى الغريزة التي تدفع الحيوان إلى الخوف والهرب أمام كل شيء لا يعرفه هي التي دفعت الإنسان إلى احترام تلك القوى الخفية التي تسير الكون من حوله وتسيطر على كل شيء، ومن هذه الغريزة نبتت أول جذور ما نسميه نحن "الدين" فما الدين إلا الاعتقاد بأن هناك قوى لا يعرف كنهها الإنسان وإن كان يشعر بغلبتها وسيطرتها عليه.

وإن كان ليس في مقدور الإنسان أن يرى هذه القوى الخفية وأن يصل إلى أصلها إلا أنه كان يشعر بأنه يعرفها بل يكاد يحسها ويميزها ويفرق بين بعضها والبعض الآخر ويعطي كلا منها اسما خاصا به، وكان يعرف أن بين هذه القوى ما ينفعه فيجعل منها قوى يصادقها وأن بينها ما يضره فيجعل منها قوى يعاديها، وليس في مقدوره أن يميز بينها على نحو آخر فهو إنسان له صديقه وله عدوه؛ وكان يعرف أن الصديق من ينفع وأن العدو من يضر.

وإني إذا حاولت أن أبين لكم الدافع الأول للإنسان إلى الاعتقادات التي تكون منها الدين فإنه ينبغي أن أبدأ بالإنسان الأول من يوم ظهر في هذه الدنيا متمتعا بما أسلفنا من غرائز متميزا على الحيوان بالعقل. فمما لا شك فيه أن توجه باحترامه وخضوعه إلى تلك القوى الخفية التي كان يشعر بوجودها حتى ليكاد يلمسها وإن كان لا يراها.

ثم إذا ما مرت العصور الأولى على الإنسان فكون الأسرة ثم القبيلة ثم الأمة. فإن هذا التقدم في أساليب الحياة الاجتماعية لم يقلل ألبتة من شعور الإنسان بحاجته الماسة إلى تلك القوى التي ذكرناها وضرورة تنظيم علاقته بها، لاسيما أن الإنسان لم يكن محتاجا إلى معين له فحسب بل كان محتاجا أيضا إلى إله يلوذ به ويناجيه إذا خلا بنفسه.

ويجب ألا ننسى أن طبيعة كل بلد لها أكبر الأثر في ديانته، فإن الشعوب التي تسكن الشواطئ ترى حواليها طبيعة تختلف كثيراً عن الطبيعة التي تراها شعوب الغابات أو السهول كما أن الشعب الذي سكن أرضاً خصبة وعرف الزراعة فربطته هذه بأرضه إنما يتخيل إلهه على وجه يختلف اختلافا بينا عما يتخيله أهل المناطق المجدبة المتنقلين وراء الماء والخضرة غازين مكافحين.

ولذلك اختص الدين المصري بطابع يميزه عن غيره، طابع يوافق طبيعة مصر الخصبة وشعبها الهادئ الصبور الذي اعتاد أن يزرع حقوله ويربي ماشيته معتمدا على نيله الفياض الذي يجلب إلى أرضه الخصوبة ويعظم فيضانه مرة في كل عام.

بل كانت في مصر قوى طبيعية أخرى سوى النيل أجبرت المصري على أن يفكر فيها ويحاول أن يعرف كنهها، فهناك الشمس تظهر فجأة صباح كل يوم من وراء الجبال فتغمر الكون بنورها وتدفئ الأرض بحرارتها وتهب الزرع الحياة وتساعده على النضج، ولكنها كانت تصليه في الصيف نارا حامية، ثم هناك القمر والنجوم التي تظهر ليلا فقط بعد اختفاء الشمس وراء الجبال في الغرب وكذلك رأى المصري كيف تتزاحم السحب أحيانا حتى تحجب الشمس وكيف يدوي الرعد ويلمع البرق ثم ينهمر المطر. كما لو كانت هنالك في السماء حرب عوان قامت بين قوى لا يعرف من أمرها شيئا...

لقد كان ذلك كله كافيا أن يبعث المصري إلى التفكير الطويل في هذه المظاهر الغريبة محاولا تفسيرها والاهتداء إلى من يثيرها أو يديرها، ولقد فكر ثم أمعن في التفكير ثم لم يستطع إلا أن يجعل من هذه القوى المتعددة آلهة مختلفة بل اعتبرها الآلهة الكبرى.

ولكن المصري تساءل في حيرة –وهو ذلك المخلوق الضعيف الذي يعيش على الأرض– عن علاقته بهذه الآلهة الكبرى: هل كانت تهتم بأمره وتخف إلى معونته إذا دهمته الخطوب؟ هل كانت هذه الآلهة تسرع لنجدته إذا هاجمه عدو أو مرضت ماشيته؟ إنها بعيدة عنه كل البعد وهو محتاج إلى آلهة قريبة منه تساعده وتشد أزره وتخفف من ويلاته، ولم يصعب على المصري أن يجد هذه الآلهة فقد وجد بين مظاهر الطبيعة التي تحيط به ما يلقي الرعب في قلبه كما وجد بينها أيضا ما يثير دهشته ويملؤه إعجابا:

فهناك الحيوانات التي كانت تسكن نيله الفياض أو الصحراء التي تحيط بمصر كالتمساح وفرس البحر والأسد وبعض الزواحف كالثعبان، وكذلك رأي هذه الأشجار الضخمة الشاهقة التي نبتت في حقوله من أزمان بعيدة لا يعرف متى زرعت ولا من زرعها.

كل هذه الأشياء رأى فيها المصري قوى خفية عليه أن يستجلب رضاها ويستدفع أذاها لاسيما أنها قريبة منه فما أسرع ما تناله بذلك كله، وهكذا تكونت تلك الآلهة المتعددة التي يصعب علينا حصرها فقد تعددت بتعدد أغراضها والمناطق التي عبدت فيها وقد نجد بعضها عبد في منطقة واحدة، وبعضها في مناطق مختلفة بأشكال مختلفة أو بشكل واحد، وبأسماء مختلفة أو تحت اسم واحد.

ولقد بقيت الحال كذلك فلكل قبيلة أو جماعة ولكل جهة أو مدينة آلهتها الخاصة بها حتى العصر الذي تكونت فيه مصر سياسيا واختفت تلك القبائل فتكونت المقاطعات ثم تضامت هذه فتكونت منها الإقليم ثم الوجهان البحري والقبلي ثم اتحدت مصر وأصبحت دولة.

فإن هذه المراحل السياسية قد أثرت في الحال الدينية تأثيرا عظيما فرأينا هذا العدد الهائل من الآلهة قد تطور بحيث يمكن تقسيمه ثلاثة أقسام:

أولاً: آلهة عبدوا لأنهم مثلوا للمصري قوى الطبيعة مثل إله الشمس (رع) ووإله القمر (خونسو) وإله الأرض (جب) وإله الهواء (شو) وإله المحيط (نو) وإله النيل (حابي) وغير ذلك.

ثانياً: آلهة عبدوا لأن المصري اعتق أن في عبادتهم استرضاء لهم ودفعا لبطشهم لأن هذه المخلوقات كانت تؤذيه وتسيء إليه وذلك كالتمساح (سوبك) وابن أوي (أنوبيس) والثعبان (أوررت) وغير ذلك.

ثالثا: آلهة رمزية عبدت في المدن المختلفة والمقاطعات الكثيرة مثل الإله حوريس في مدينة دمنهور في غرب الدلتا، والآلهة عنجدتي في شرق الدلتا والآلهة نايت في وسط الدلتا والعجل في شمال الدلتا والآلهة نخبيت في مدينة الكاب والإله أمون في الأقصر والإله خنوم (الكبش) في أسوان.

فأما الآلهة الأولى فكانت عبادتها منتشرة في جميع البلاد، وأما الثانية فكانت عبادتها في الجهات التي تظهر فيها ويعظم خطرها وتكثر اعتداءاتها وأما آلهة القسم الثالث فإن عبادتها كانت محلية فقط إلا إذا تمكن حاكم المنطقة التي يعبد فيها أحد هذه الآلهة أن يسيطر على مناطق أخرى فيلزم أهليها أن يعبدوا إلهه، حتى إذا تمكن من بسط سلطانه على مصر جميعاً فرض عبادة إلهه على البلاد جميعها فأصبح إلها للدولة.

على أن المعروف أيضاً أن المصري من أول التاريخ حتى آخر عصوره اعتقد أن هنالك إلها خلق الأرض وهو يحافظ عليها، عينه اليمنى الشمس وعينه اليسرى القمر ونفسه هو الريح، وهناك مناجاة وصلت إلينا من عصر الدولة الحديثة تقول:

"أنت الإله الذي وجدت أولا حيث لم يكن في الكون أي إله آخر أو أي اسم لأي شيء قد وجد، إذا فتحت عينيك اللتين ترى بهما أمكن كل مخلوق على الأرض أن يرى النور".

وكان المصري القديم يفسر اختفاء القمر ورجوعه خلال الشهر القمري بأن هذا الإله قد فقد عينه فهو يناضل ويكافح حتى يسترجعها.

وربما كان هذا أساساً للعدة الموجودة عندنا الآن، وهي أنه كلما حدث خسوف للقمر نرى العامة يسيرون في الطرقات صائحين يقرعون الصفيح والطبل وبعضهم يطلق النار لكي ينجو القمر من العدو الذي يحاول أن يسرقه.

ومما ينبغي ذكره أيضاً أن المصري القديم كان يعتقد وجود إله آخر وأنه واحد يشكو إليه ويطلب منه العون وهذا الإله كانوا يذكرونه بعنوان (الإله) فحسب غير مسمى باسم خاص كأسماء رع وأتوم وحوريس مثلا.

ومما عرف من أقوالهم ١) "الإنسان من طين وقش والإله هو بانيه".

٢) "حقا أنت لا تعرف ما يفكر فيه الرب كما لا تعرف ماذا سيأتي به الغد، ولكن ألق بنفسك بين يدي الإله".

هذا ثم إني أؤكد لكم أن هذه الديانة المصرية هي أصعب الديانات القديمة في دراستها إذ أن تنوع آلهتها وتشعب نظرياتها وتناقضها يجعل من الصعب أن نكون عنها فكرة كاملة متسلسلة كما نفعل مثلا عند دراسة التاريخ المصري.

ولعل من أسباب ذلك:

١) التقدم السريع الذي أحرزته مصر في تدرجها من بلاد عرف إنسانها الصيد فقط وكانت ساكنة الكهوف، إلى بلاد تقدمت وترعرعت

فيها الحضارة فعرف أهلها الزرع والحصاد ووضعوا النظم والقوانين الاجتماعية التي تلزمه الحياة في جماعات ذات قوانين وأنظمة خاصة يجب أن يسير عليها، ثم أيضاً انتقال مصر من مجموعة مقاطعات إلى بلد واحد عرف الملكية، كل هذه التطورات السريعة التي مرت بها مصر كانت ذات أثر كبير في دينها إذ تبع هذه الانقلابات الثقافية والاجتماعية والسياسية انقلاب ديني اختلطت فيه العقائد وتعددت وتشعبت إلى درجة خطيرة حتى كانت تجمع بين المتناقضات.

٢) وقد ساعد على ذلك محافظة المصري على القديم فكان إذا ظهرت فكرة أو عقيدة جديدة أخذ بها فضمها إلى عقيدته القديمة دون أن يفكر فيما بينهما من تناسق أو تناقض، وهذا مما يجعلنا نرتاب في أن المصري القديم كان فيلسوفاً أو أنه استعمل المنطق في الحكم على الأمور.

٣) الكهنة المصريون وقد كانوا –كأمثالهم في جميع البقاع والعصور القديمة– فئة من الرجال أخذوا على عواتقهم القيام بخدمة هذه الآلهة المتعددة والعناية بها ولقد تمتعوا في ظل هذه الآلهة بمركز سام بين أوساط الشعب لم يكن لهم أن يحلموا به لولا تلك الآلهة فكان عليهم إذن ليحتفظوا بنغمتهم ومجدهم أن يعتكفوا عن الشعب ويتشحوا بالغموض وينشروا الأساطير عن آلهتهم ويحتفظوا بمميزاتها وأسرار طبيعتها ما استطاعوا حتى يكونوا وسطاء بينها وبين هذا الشعب الجاهل لا ينازعهم في ذلك أحد، وقد كان إمعانهم في التهويل ووضع الأساطير لتوطيد مركز الآلهة من أسباب التشعب والغموض والتناقض في الديانة المصرية القديمة.

درجات الكهنة

كان الملك يلقب "نترعا" أي الإله الأكبر كما كان يعتبر الكاهن الأول الذي يقوم بكل المراسيم الدينية. وقبل دخوله قدس الأقداس لأداء الشعائر كان يطهر بالماء ومحلول النطرون ويتطيب بالبخور ويتضمخ بالعطور.

ولما كان من الصعب أن يقوم الملك يوميا في المعابد كلها بالمراسيم الدينية فقد عاونه الكهنة الذين كانوا يتخرجون من مدرسة طيبة في معبد الكرنك، أو مدرسة "أون" بمدينة عين شمس حيث يتلقون العلم والغش الديني على كهنة أكفاء، وكانت لهم درجات منها:

١) الكاهن (خريحاب) وكان يقوم عادة بقراءة التراتيل القديمة في الحفلات وكان يسمى كاتب الكتاب المقدس ويعتبر من علماء الأدب القديم.

٢) الكاهن (أواعب) المطهر وهو الذي كان يقوم بعملية التطهير، ويقال أيضا إنه كان يمتحن دماء الحيوان الذي يذبح قربانا ويشهد بسلامته من الأمراض.

٣) الكاهن (حم نتر) خادم الإله.

ثم كان هناك عدد لا يحصى من صغار الكهنة بجانب كبارهم يقومون بالأعمال المختلفة بالتناوب ويجب على الكاهن "أن يكون على معرفة تامة بأنواع القرابين التي تقدم للإله وبأوقات تقديمها وأن يحفظ الصور المختلفة للآلهة وشاراتها المقدسة وأن يعرف (بردوات) أي بيت الصباح وهو المكان

الذي يدخله الملك للغسل والطهارة في أول النهار. وأن يقوم بوضوح المسوح على تمثال الإله وأن يحمله في المناسبات والحفلات الدينية الرسمية ولا يدخل قدس الأقداس إلا وهو متطهر ومرتد ملابسه الخاصة ويتحتم عليه أن يحتفظ بأسرار وظيفته ولا يبوح بها ولدينا نص كتبه أحد كهنة الأسرة الثامنة عشرة وفيه يقول (قمت بوظيفة "أواعب" الذي يدخل معبد أمون ووضعت المسوح المقدسة على تمثال الإله وكنت أحمل تمثاله على منكبي وكنت أنحني احتراما أمامه ولم أرفع صوتي أبدا في قدس الأقداس ولم يلمس فمي القرابين المقدسة ولم أبح بشيء مما يقال ويعمل سرا في المعبد".

الحفلات الدينية

كان الكهنة على اختلاف درجاتهم يقومون بواجبات وظائفهم في المعابد كل يوم، ويتبعون في عملهم طقوساً مرسومة مصحوبة بأناشيد وتراتيل خاصة سواء في ذلك الحفلات الدينية والمواسم والأعياد وسائر أيام السنة.

وهاك بعض التراتيل التي كانت تتلى عند تأدية العبادة في المعبد:

١) ترتيلة إيقاد النور.

٢) ترتيلة إشعال نار المباخر.

٣) ترتيلة حمل المباخر.

٤) ترتيلة السير إلى باب قدس الأقداس.

٥) ترتيلة فض الأختام التي على باب قدس الأقداس.

٦) ترتيلة فتح باب الناوس.

٧) ترتيلة دخول الناوس.

٨) ترتيبة تقبيل الأرض أمام الإله.

٩) ترتيلة رفع الغطاء عن وجه الإله.

١٠) ترتيلة رؤية وجه الإله.

١١) ترتيلة الجثو والتمرغ أمام الإله.

١٢) ترتيلة وضع العطور على التمثال.

وكان على الكاهن عند فتح باب الناوس أن يحرق البخور ويضعه أمام أنف تمثال الإله وينحني احتراماً مرتلا الأناشيد بصوت شجي ثم يخرج الأواني المختلفة من صندوق يحمله ويقوم بعملية التزيين اللازمة للإله بأن يرش الماء مرتين على وجهه، ثم يضع عليه الملابس الكتانية البيضاء والخضراء والحمراء ثم يعطرها بالعطور، ثم يقدم أمام تمثال الإله الطعام والشراب من خبز ولحوم وأوز ونبيذ وأزهار لتتغذى بذلك روح الإله.

وقد كان بالمعبد أيضا عدد كبير من الكاهنات اللائي يقمن بالرقص والعزف على الآلات الموسيقية للإله.

الدولة القديمة ٢٧٨٠- ٢٢٧٠ ق.م

عصر بناء الأهرامات:

بالأسرة الثالثة تبدأ الدولة القديمة. وعنوان هذا العصر الأهرامات التي تمتد من ميدوم إلى دهشور إلى سقارة إلى أبو صير ثم إلى الجيزة وأبو رواش.

وإذا كان العصر الذي سيق الأسرة الثالثة عصر الانتقال من الإقطاعيات إلى الاتحاد ومن التفكك إلى الانداج ومن اللامركزية إلى المركزية فإن العصر الحالي الذي يبدأ بالأسرة الثالثة عصر يذكر التاريخ فيه مصر ككتلة واحدة لا انشقاق فيها إلا حروب أهلية. فكانت مصر من شمالها إلى أقصى جنوبها يحكمها ملك واحد ويدير دفتها هو وحده وله أن يأمر وينهي من يشاء كما يشاء. بل كان الملك في عصر الدولة القديمة ابن الإله ويلقب نفسه بالإله من حقه أن يحكم مصر لأنه إلهها الأرضي الذي له الحق في الاتصال بعالم لآلهة أما ما عدى الملك من كهنة وموظفين فهم ليسوا إلا أشخاصا خلقوا لكي يساعدوا الملك في حكمه فلا سلطة لهم البتة هذا العصر الذي سمعنا فيه أن وزراء الجنوب ينقلون إلى الشمال كما أن حكام مديريات الوجه القبلي كانوا يحكمون أيضا بعض مديريات الوجه البحري. مما يدل على الاتحاد التام والمركزية الثابتة.

هذا وإن كان الانفصال الأول بين الوجهين بقى ظاهرا في بعض

مظاهر الحكم فمثلا كان الملك يلقب دائما بملك الأرضين أو بملك الجنوب والشمال وكانت هناك إرادتان إحداهما لشئون الجنوب والأخرى لشئون الشمال وكذلك محكمة للشمال ومحكمة للجنوب ولكن هذه الإرادات كانت تابعة من ناحية أخرى للحكومة المركزية التي كان مقرها العاصمة منفيس.

ونحن إذا وصفنا هذا العصر بأنه عصر ذهبي فيجب أن نميزه عن العصور الذهبية الأخرى بأنه لم يظهر كنتيجة لعوامل خارجية مثل الفتح أو كثرة الأموال المتدفقة من الجزية أو لكثرة الأسرى الذين يستخدمون لتقوية شأن مصر. بل هذا العصر الذهبي الأول إنما كان نتيجة لاتحاد مصر إذ نهضت ككتلة واحدة لا تمييز فيها بين مصري الشمال ومصري الجنوب.

ولكن ليس معنى هذا أن نفضل هذا العصر الذهبي على العصور الذهبية الأخرى مثل عصر الدولة المتوسطة (الأسرة الثانية عشر) ثم عصر الدولة الحديثة (الأسرة الـ ١٨– الـ ١٩) ثم في العصر المتأخر (الأسرة الـ ٢٦) بل لكل عصر طابعه الخاص ومآثره الحميدة في المساهمة في تقدم حضارة مصر وشعبها. ولكن يمكننا أن نقول بأن العصر الذهبي الأول هو العصر الوحيد الذي تتمثل فيه قوة الملك وبطشه هذه القوة التي جعلت من الحجر تماثيل فاخرة وأبنية شاهقة تضارع في فنها وهندستها أحسن أبنية الشعوب القديمة هذه القوة الجبارة التي دفعت مصر في طريق العلم والمعرفة ففي هذا العصر عرف المصري الطب فأتقنه ثم اهتدى إلى العناصر الكيماوية التي برع في مزجها وحنط بها جثث موتاه بطريقة لا تزال إلى اليوم أعجوبة من أعاجيب البشر.

الأسرة الثالثة:

تولت الأسرة الثالثة الحكم في مصر بعد معارك كثيرة رأينا آثارها ظاهرة واضحة في الأسرة الثانية. بعد أن تمكن الملك خاسخموي من إذلال الشمال وضمه إلى الجنوب وتوحيد القطرين توحيدا يعتقد أنه كان سياسياً فقط ويؤكد هذا لاضطرار أول ملوك الأسرة الثالثة إلى التزوج من أميرة شمالية اسمها "ني معات داب" أم الملك "زوسر" أشهر ملوك الأسرة الثالثة.

ملوك الأسرة الثالثة

١) زوسر– نترخت (٢) سانخت (٣) نب كا (٤) حوني.

زوسر: نحن لا نعرف الكثير من أعماله الحربية. ولقد عثرنا على لوحة تذكارية في منطقة شبه جزيرة سينا نرى فيها الملك زوسر وهو يعاقب العدو الجاني بين ساقيه بأن يضربه بالصولجان. هذا العدو هو قبائل البدو التي تسكن الصحراء الشرقية.

ثم هناك لوحة أخرى نسميها "لوحة المجاعة" كتبت في عصر متأخر وتحدثنا عن المجاعة الطويلة المدى والتي حدثت في مصر في عصر الملك زوسر وهي تذكر كيف أن الملك فرض على بلاد النوبة (التي كانت خاضعة وقتئذ لحكم مصر) جزية تساوي عشر المحصول تقدمها إلى مصر أو بمعنى آخر إلى إله الشلال (خنوم) وذلك لكي يخفف ألمك من وطئه المجاعة التي كانت في مصر.

ونحن نأسف من أنه لم تصلنا أخبار كثيرة عن الملوك الذين ورثوا عرش زوسر.

نب كا: ولا نعرف عن "نب كا" إلا أنه حاول أن يبني هرما له ومات قبل أن يتمه ولا زالت آثاره موجودة في المكان الذي نسميه الآن بزاوية العريان جنوب الجيزة.

حوبي: أما الملك حوني فهو الذي بني هرم دهشور المنكسر الأضلاع وبذلك أصبح الحلقة الثانية من سلسلة تقدم فكرة الهرم التي بدأها زوسر بأن بني هرمه بشكل مدرج ثم بلغت أوجها في عصر الملك سنفرو بأن أصبح الهرم هرمي الشكل ممتد الأضلاع.

وكانت للملك حوني ابنة اسمها حوتب هرس تزوجها الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة وأنجبت منه الملك خوفو أشهر ملوك الأسرة الرابعة.

إن ما وصلت إليه الحضارة المصرية في عهد الأسرة الثالثة لم يظهر لنا بوضوح إلا بعد إزالة الرمال عن منطقة هرم زوسر المدرج في سقارة. فلقد ظهرت لنا الحفريات التي قام بها الأستاذ فيرت وكوببل ثم الآن المسيو لو وير عن أبنية استعمل في بنائها فن كنا نعتقد إلى مدة قريبة أن موطنه اليونان وليس مصر. هذا الفن الذي أقيمت سقوفه على عمد مضلعة كل ضلع منها قليل الاستدارة. هذه العمد التي أطلق عليها **Poto dorie** قد عثر عليها في سقارة في عصر يسبق عصر ظهورها في بلاد اليونان بعدة قرون. ثم كشفت لنا هذه الحفريات عن أول أبنية من الحجر. وأهمية هذا

الاكتشاف عظيمة جدا إذا عرفنا أن المصري استعمل الحجر لأول مرة في عصر الأسرة الأولى ولكنه استعمله فقط في أرضية المقبرة التي بنيت في أبيدوس للملك Den ثم استعمل الحجر بعد ذلك في مقبرة الملك خاسخموي من الأسرة الثانية.

فالتقدم السريع الذي تمكن المصري أن يجتاز درجاته بمثل هذه السرعة أدهش رجال الفن في العالم الحديث ولقد قال بعض العلماء أن هذه الدرجة التي وصل إليها فن البناء في عصر الأسرة الثالثة كان كنتيجة لتقدم مستمر ظهرت آثاره في عصر الأسرة الأولى حيث كانت العادة أن يبني الملوك مقابرهم من الطمي ثم ظهرت فكرة استعمال الحجر في مقبرة واحدة ثم بعد ذلك في الأسرة الثانية وجدنا مقبرة واحدة بنيت جدرانها من الحجر وعلى ذلك وجب أن نعثر في عصر الأسرة الثالثة على بناء ضخم كله من الحجر. ولكن من الغريب أن الملك زوسر كان قد بني في أول أمره مقبرة هائلة في بيت خلاف من الطوب النيء. أي أنه نحى نحو ملوك الأسرة الثانية في ذلك ولكنه فجأة ترك مقبرته الأولى في بيت خلاف وذهب إلى سقارة حيث بني هرما ومعبدا ضخما كله من الحجر الجيري الأبيض. وعلى ذلك أصبحنا نعتقد الآن أن هذه الخطوة الجريئة لم تكن كنتيجة لتقدم فكره بل كانت نتيجة عبقرية فنان كبير. هذا الفنان الجريء هو وزير زوسر إيمحوتب هذا المهندس الذي كان طبيبا ووزيرا والمشرف على كل صغيرة وكبيرة في شئون المملكة. ولقد كان هذا الرجل أشهر من نار على علم وتحدث بنبوغه كل مصري عاش حتى الأجيال المتأخرة ولقد بلغ تقدير

المصريين له أن جعلوا منه إلها يخلف الإله بتاح إله الفن والصناعة. ونحن نعرف أنه أصبح عند اليونان إله الطب وسموه **Ascleopios**. ومن البديع أن نعثر على نص تحدث فيه كاتبه الذي عاش في عصر داريوس الأول (أي بعد ٣٠٠٠ سنة) بهذا الوزير النابغة.

الأسرة الرابعة ٢٧٢٠- ٢٥٦٠ ق.م

ملوك الأسرة الرابعة:

١) سنفرو (٢) خوفو (٣) ددفرع (٤) خفرع (٥) منقرع (٦) شبسسكاف.

سنفرو: أخذ الملك "سنفرو" أول ملوك هذه الأسرة ابنة الملك حوني زوجة له واسمها "حوتب. هر. س" ويظهر أنها كانت واسعة النفوذ حتى إنها وصفت في مقبرة زوجها بالوصف الآتي: "أم أولاد الملك التي إذا أمرت بأي شيء نفذ لها في الحال".

من آثار الملك سنفرو هرمه في ميدوم بالقرب من الفيوم ثم هرمه الثاني في دهشور بالقرب من سقارة.

وفي عصره حصنت مصر حدودها وأمنت على نفسها من الغارات الأجنبية ولقد قام سنفرو بحملة حربية ضد قبائل النحسبين الذين سكنوا بلاد النوبة وهزمهم وأسر منهم سبعة آلاف شخص واستولى على عشرين ألف رأس من الغنم. ثم حارب البدو في بلاد شبه جزيرة سينا وبعد إذ هزمهم بنى القلاع.

ثم ورد على حجر بالرمو اسم الملك سنفرو وذكرت ثلاث سنوات من حكمه: السنة الأولى سميت بسنة إحضار الأربعين سفينة المحملة بخشب الأرز الذي كان ينبت فقط على تلال لبنان وهذا يدلنا على أن العلاقات التجارية كانت قائمة بين مصر وسوريا في هذا العصر ونستدل بذلك أيضا على أن هذه العلاقة كانت بلا ريب قائمة أيضا في عصر يسبق سنفرو.

أما السنة الثانية فسميت بسنة تعداد الماشية السابع وعلى ذلك يجب أن يكون قد سبق هذا التعداد ستة تعدادات أخرى للماشية.

ثم في الثالثة ذكرت غزوته لبلاد النوبة السابقة الذكر ومن الأشياء المهمة التي يجب ذكرها هنا أن أحد آثار هذا الملك ذكر لنا إحضار حجر (نصف كريم) أزرق اللون ومن المعروف أن هذا الحجر كان المصريون القدماء يستوردونه في العصور التالية من بلاد الفرس وهنا نتساءل هل كانت مصر في أول عصر الأسرة الرابعة في علاقات تجارية مع بلاد الفرس؟

خوفو: لقد خلد هذا الملك اسمه في التاريخ ببنائه هرمه المعروف في الجيزة وإني اعتقد أن هذا البناء الضخم لهو أكبر دليل على قوة الحكومة في هذا الوقت وعن عدم اشتغالها بحروب أو فتوحات أياً كانت وعلى ذلك يمكننا أن نتحدث عن الأسرة الرابعة بأن عصرها كان عصر هدوء تام تمركزت فيه السلطة في يد الملك ولذلك انصرف ملوك الأسرة الرابعة إلى بناء أهراماتهم الهائلة ومعابدهم الواسعة وقلما نجد في عصر هذه الأسرة حوادث خارجية تستحق الذكر وسوف تكون دراستنا للأسرة الرابعة

قاصرة على دراسة آثارها الخالدة دراسة تمكننا من فهم هذه الآثار والوصول إلى المغزى الذي من أجله بنيت.

الهرم

في أوائل الأسرة الثالثة كان الملوك والمصريون أجمعون يبنون مقابرهم بالقوالب المصنوعة من الطمي الغير المحروق (الطوب الني) ولقد عرفنا كيف أن الملك زوسر نفسه بدأ بأن بنى مقبرة له من الطوب الني وفجأة تمكن المصري من استغلال الحجر في بناء مقابره وأهراماته وكان ذلك في عصر الملك زوسر أيضا.

وكانت المقبرة تنقسم إلى قسمين. قسم في جوف الأرض معد لدفن الميت وآخر فوق الأرض. ولأن الجزء المبني فوق سطح الأرض كان مائل الجوانب اضطلع الأثريون على تسميته "مسطبة" وذلك لأنه يشابه مساطب الفلاحين في العصر الحديث.

وعلى ذلك تكون المسطبة في أول أمرها عبارة عن بناء إما من الطمي أو من الحجر مستطيل الشكل مائل الجوانب. ومن سطح هذه المسطبة تنخفض بئر عميقة يتراوح عمقها بين ٣ أمتار و٢٥ متر يوصل إلى حجرة الدفن التي يدفن فيها الميت في تابوت إما من الخشب أو من الحجر.

ومن المسطبة نشأت فكرة الهرم. إذ أن الهرم المدرج ليس إلا ستة مساطب الواحدة فوق الأخرى ومن أول الأسرة الرابعة تقدمت فكرة بناء المساطب المدرجة أو ما نسميه نحن الأهرامات المدرجة وظهرت الأهرامات الحقيقية التي بنيت لتكون مقابرا للملوك حتى أوائل الأسرة الثامنة عشرة

وأول هرم بناه سنفرو وأول ملوك الأسرة الرابعة موجود في دهشور.

لماذا بني الهرم؟

يعتقد المصري في خلود الروح وبأنها ستحيى حياة لا نهاية لها ولذلك عمل جهده على أن يسهل على الروح هذه الحياة وعرف أن من شروط هذه الحياة أن تبقى الجثة محفوظة لا تفقد أي شيء من معالمها. ولذلك بني المسطبة ووضع الجثة في تابوت محكم وأخفاه في أعماق الأرض ثم حلى جدران المسطبة بكل ما اعتقد أنه سيحتاج إليه في حياته الثانية فمن قوارب لعبور النيل إلى مناظر الحصاد والزرع إلى مناظر الصيد على اختلاف أنواعها إلى المناظر التي تجري في منزله من المطبخ وتربية الحيوانات المنزلية وغير ذلك وزود كل هذه المناظر بنصوص تفسرها حتى لا تتحير الروح في التعرف إليها أو تذكرها ثم خاف أيضاً أن الزمن ربما يتغلب على الجثة المحفوظة فيبليها أو يجعل العطب يدب إليها فرسم صاحب المقبرة في مواقفه المتعددة ثم قطع من الحجر عدة تماثيل على صورة صاحب المقبرة وأودعها مكاناً خاصا نطلق عليه اسم "السرداب".

والهرم ليس إلا مقر الخلود للملك. لا يحوي بناؤه إلا جثة الملك وأحيانا يوضع جثة الملكة في حجرة خاصة بها أو يبني لها هرم صغير بجانب هرم الملك.

وفي الدولة القديمة كانت مساطب الأشراف وكبار الموظفين تبنى مرصوفة في خطوط مستقيمة عند سفح الهرم وبذلك يطل الملك عليهم في دار الخلود ويرعاهم كما كان الحال في دار الدنيا.

ونجد بجوار كل هرم من أهرامات الجيزة معبدين الأول معبد خاص يسمى المعبد الجنائزي يبني عادة شرقي الهرم يخصص لكبار الكهنة وللبيت المالك تقام فيه الطقوس الدينية وتقدم فيه القرابين إلى الملك الراحل. ثم المعبد الثاني وهو ما نسميه معبد الوادي أي المعبد الذي يقام في الوادي بالقرب من النيل وكان بمثابة مدخل كبير تصل إليه الوفود من كل جانب حتى إذا اجتمع شملهم صعدوا إلى المعبد الجائزي بواسطة ممر طويل يصل المعبدين.

هرم الجيزة الأكبر

بناه خوفو وهو بناء هندسي محكم، أضلاعه متساوية، وأركانه الأربعة متجهة نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب.

وطول القاعدة **٢٢٧,٥** متر هذا مع العلم بأن طول هذه القاعدة الأصلي أي بالغطاء الذي كان يكسو الهرم كان **٢٣٠,٣٨**.

وارتفاع الهرم الآن **١٣٧,١٨** متر وكان في الأصل **١٤٦,٥٩** متر.

ولقد أراد بعض المهندسين الأوربيين أن يعرفوا مقدار ضبط المقاييس عند قدماء المصريين فانتهت أبحاثهم إلى أن الاتجاهات الضلعية لجوانب الهرم لم تحل عن خطها المستقيم إلا بضعة مليمترات.

أخذت الأحجار لبناء هذا الهرم من محاجر طره والمقطم والبعض من المنطقة نفسها. ونحن إذا تصورنا العدد الهائل الذي يحتويه بناء الهرم ومعبديه من الأحجار وتصورنا أين قطعت هذه الأحجار وكيف نقلت من محاجرها

إلى سفح الهرم حيث صقلت وأعطيت الزوايا اللازمة لموضعها ثم نقلت إلى مكانها لوجدنا أن هذا عمل شاق يحتاج إلى نظام دقيق وهندسة عالية ودقة في العمل وتوزيعه ثم على قوة إدارية محكمة لا يمكن للفرد العادي أن يتخيلها وقد ذكرنا أن محاجر طره كانت المصدر الرئيسي للأحجار التي بنيت منها الأهرامات في الجيزة استغلت أيضاً لهذا الغرض. أما ما استعمل من حجر الجرانيت فكانت يجلب من أسوان.

وكانت الطريقة المتبعة في قطع الأحجار هي أن توضع أوتاد (قطع خشبية طويلة) في فجوات تنحت من الصخر على أن يكون طول وعرض الصخر بين هذه الفجوات مناسبا لمقاييس قطع الحجر اللازمة في البناء ثم تبلل هذه القطع الخشبية بالماء حتى إذا كمل تبليل هذه القطع زاد حجمها فتنفصل الصخور التي حفرت في جوانبها الفجوات المذكورة.

ثم تنقل هذه الأحجار بعد ذلك على زحافات حتى شاطئ النيل وبعد ذلك على المراكب حتى تصل قرب هضبة الهرم ومن هنا كانت تنقل مرة ثانية على زحافات يجرها آلاف من العمال أو الثيران على سطح مائل من الرمال والطوب ملمس معبد يعلو سطحه بالتدريج كلما ازداد ارتفاع الهرم.

ومن الغريب أن الملك خوفو الذي خلد اسمه في التاريخ إلى الأبد ببنائه الضخم لم يترك لنا سوى تمثال صغير من العاج عثر عليه في أبيدوس وهو معروض الآن في المتحف المصري.

وقد بدأ خوفو بناء هذا الهرم عند توليته عرش مصر مباشرة وكان

يجمع العمال اللازمين للقيام بهذا العمل العظيم في وقت الفيضان حينما تعلو مياه النيل وتغمر المزارع وتجبر الفلاح على المكث في داره طوال أشهر الفيضان.

ولقد أخبرنا هيرودوت المؤرخ الإغريقي الذي زاد مصر عام ٤٥٠ ق.م أن مائة ألف من العمال كانوا يعملون في بناء هذا الهرم وكانوا يستبدلون كل ثلاثة أشهر وكانت لهم مدينة خاصة بهم وكان على الملك أن يطعمهم ويؤويهم وحدثنا أيضا هذا المؤرخ بأن الملك أمضى عشر سنوات في قطع الأحجار اللازمة لبناء هذا الهرم بينما البناء نفسه استغرق عشرين سنة أخرى.

ولقد قام أحد مهندسي الألمان المشهورين اسمه الأستاذ بورخارث بأبحاث علمية قيمة استدل منها على أن الملك استغل لبناء هذا الهرم نفس العدد الذي حدثنا به هيرودوت وهو مائة ألف عامل ولكنه يعتقد بأن الهرم لم يستغرق في بنائه مع قطع الأحجار ونقلها أكثر من ٢٠ عاما.

أما الباب الأصلي لدخول الهرم فكان في الجانب الشمالي، ويقع هذا المدخل على ارتفاع ١٥ متر من القاعدة. وبأسفل الباب فتحة فتحها الخليفة المأمون ابتغاء الوصول إلى داخل الهرم. ويؤدي مدخل الهرم الأصلي إلى طريق مائل ارتفاعه ١,٢٢ وعرضه متر.

الملك خفرع: أهم ما بناه هذا الملك هو هرمه الثاني الذي يظهر كما لو كان مرتفعا عن الهرم الأكبر بينما هو أصغر منه ويبلغ ارتفاعه الآن ١٣٧ مترا وطول القاعدة الحالي ٣١٠ مترا (مقابل ٢٣٢ مترا في هرم

خوفوا) وسبب ظهوره أعلى من هرم خوفو أنه بنى على هضبة تعلو الهضبة التي بنى عليها هرم خوفو.

ويظهر أن الملك خوفو كان قد استنزف جزءا كبيرا من موارد البلاد في بناء هرمه لأن بناء هرم "خفرع" جاء أقل منه اتقانا. ولهذا الهرم مدخلان في الجانب الشمالي أحدهما لا يرتفع إلا قليلا عن سطح الهضبة والآخر يعلو سطح الهضبة بنحو ٤٥ متر وكلاهما يؤدي إلى غرفة الدفن التي يوجد بها تابوت من الجرانيت الأحمر ليس عليه نقوش أو كتابات.

وكانت الأهرامات عادة مكسوة من الخارج بلوحات حجرية ملساء ولقد بقي جزء من هذا الكساء في أعلى الهرم الثاني.

وقد ذكرنا أن لكل هرم معبدين المعبد الجائزي ومعبد الوادي ولقد بقي معبد الوادي لهرم خفرع حتى الآن.

وواجهة هذا المعبد كانت تشبه في بنائها المصطبة وكان يوجد أمامها في الوسط ناووس حجري يحتمل أنه كان يحوي تمثال الملك. وكان لهذا المعبد مدخلان أمام كل منهما تمثال لأبي الهول بقيت منها إلى الآن قواعدها المستطيلة وهذان المدخلان يوصلان إلى دهليز مستطيل يوصل من ناحية أخرى إلى ردهة بشكل حرف T الإفرنجي بها ستة عشر عمودا مربعا من الجرانيت ستة أعمدة في الذراع العرضي وخمسة أعمدة على كل جانب من جانبي الذراع الطولي. وكان ارتفاع كل منها خمسة أمتار. أما هذه الردهة فكانت تضاء بواسطة فتحات منحرفة في زوايا السقف. فيسقط الضوء على الأرض المكسوة بالمرمر وعلى الجدران الجرانيتية

وينعكس لذلك ضوء جميل في جوانب الردهة ولم يكن بهذه الردهة ولا الدهليز أي نقوش أو صور.

وكان أمام جدران هذه الردهة ٢٣ تمثالا للملك خفرع يدلنا على ذلك الحفرات المستطيلة التي احتفرت لتكون قواعد لهذه التماثيل. وقد نقل بعض هذه التماثيل إلى المتحف المصري بالقاهرة وأغلبها من المرمر كما كان البعض منها من حجر الديوريث الأزرق الجميل وحجر الشيست الأخضر.

وتجد في الزاوية الجنوبية الغربية للذراع الطولي من الردهة عدة مخازن مكونة من طابقين يعلو أحدهما الآخر وبكل طابق منهما ثلاث غرف وفي الزاوية الشمالية الغربية للذراع العرضي للمعبد ممر به غرفة مبنية كلها من المرمر تشتهر باسم غرفة البواب. وأمام هذه الغرفة مستوى مائل يؤدي بك إلى سطح المعبد وأرضية هذا المستوى وحوائطه مبنية من حجر المرمر.

ولهذا المعبد باب في جانبه الغربي حيث يبدأ منزلق طويل نسميه الممر مرصوف بحجارة جيرية ضخمة ولقد أنتجت الأبحاث الجديدة في منطقة الهرم أن هذا الطريق كان مسودا ومسقوفا وكان يضاء بفتحات صغيرة.

أبو الهول

في شمال معبد الوادي لهرم الملك خفرع نجد تمثال "أبو الهول" وكان في الأصل صخرة طبيعية نحتها الفنانون على شكل أسد رابض له وجه الملك خفرع. فكأنه صورة الملك رابضا كالأسد ومولياً وجهه ناحية الشرق ليعبد الشمس.

وارتفاع أبي الهول ٢٠ مترا وطوله ٤٦ مترا وعرض وجهه أربعة أمتار وارتفاع الأذن متر وثلث والأنف متر ونصف وعرض الفم متران ونصف.

ويوجد على رأسه جزء من تاجه وبقية من الحية (رمز الملكية) التي كانت على جبهته.

وقد طمرته الرمال في عصور التاريخ المختلفة وأزيلت عنه عدة مرات وكان أول من قام بذلك الملك تحتمس الرابع ودون لنا ذلك في اللوحة الجرانيتية التي بين مخلبيه إذ يقول: أنه خرج مرة للصيد في الصحراء ثم غلبه النعاس فنام قليلا ورأى في نومه الملك خفرع في هيئة أبي الهول وبشر بأنه سيرتقي عرش مصر وطلب منه أن يزيل عنه الرمال. وقد نفذ الملك هذه الرؤيا عند جلوسه على عرش مصر.

ثم أزيلت عنه الرمال ورمم التمثال في عهد البطالسة وكذلك في عصر الرومان وأضافوا إليه في نفس الوقت مذبحا للقرابين وكذلك السلالم التي بالجهة الشرقية.

ثم في العصر الحديث قامت مصلحة الآثار بدورها في إزالة الرمال عنه حتى ظهر بارزا جميعه.

هرم الجيزة الثالث

بناه الملك منقرع وارتفاعه في الأصل ٦٦ مترا والآن ٦٢ بئرا وطول القاعدة وعرضها ١٠٦ أمتار.ويدل بناء هذا الهرم على أن البلاد في عهد الملك منكورع كانت قد أنهكت قواها ونضبت موارد الثروة فيها فلم يتمكن

من إقامة بناء ضخم كما فعل كل من خوفو وخفرع من قبل. فكما نرى يبلغ ارتفاع هرمه نصف ارتفاع الهرم الأكبر. ويمكن أن نفسر صغر هرم الملك منقرع بأن الملك لم يعمر طويلا حتى يتمكن من إنشاء هرم كبير. فبينما خوفو عمر ٦١ سنة وعاش خفرع ٦٣ نجد أن منقرع حكم فقط مدة لا تزيد عن ثمانية سنوات. وعلى كل حال كان الملك منقرع ملكا ضعيفا ازداد نفوذ كهنة عين شمس في أيامه فأضعف هذا من سلطته.

وما زال هذا الهرم محتفظا بجزء كبير من كسوة قمته التي كانت من الحجر الجيري. أما أسفله فكان من الجرانيت الأحمر. ومدخل في الجهة الغربية. وقد كسيت أرضية مدخله بالجرانيت ويؤدي هذا المدخل إلى غرفة أولى مزينة بمربعات منحوتة في الصخر ثم نجد ممرا أفقياً يؤدي إلى غرفة يظهر أنها لم تنته بعد يبلغ طولها ١٤ مترا وعرضها أربعة أمتار وكان القصد منها تضليل اللصوص وقد وجد فيها تابوت باسم الملك منقرع. وفي هذه الغرفة ممر مختف في الأرض يؤدي إلى غرفة الدفن الحقيقية وهنا وجد تابوت جميل من حجر البازلت بدون نقوش ووجد غطاؤه المكسور والجثة في الممر (والجثة موجودة الآن بالمتحف البريطاني).

وقد أخرج التابوت البازلت وأرسل إلى لندن ولكن السفينة التي نقلته غرقت به بالقرب من الساحل الأسباني. وتحت هذه الغرفة غرفة أخرى كان بها تماثيل الملك.

ووجد في الجهة الشرقية من هذا الهرم على بعد ١٢ مترا أطلال قاعدة المعبد الجنائزي ويظهر أن معبد الوادي لهذا الهرم لم يتم بل بني فقط باللبن (الطوب الني).

ددف رع: هذا الملك ذكرته في مبدأ محاضراتي عن الأسرة الرابعة بعد الملك خوفو والسبب في ذلك أنه ذكر في جدول أبيدوس وسقارة بين الملك خوفو وخفرع. ولو أن هناك من يضعه بعد الملك منقرع معتمدين في ذلك على مانيتون ومما يؤسف له أننا لم نعثر على آثار لهذا الملك سوى خاتم مستدير مكتوب عليه اسمه. والأستاذ يونكر يضع هذا الملك بعد خوفو. ويقول أنه نقل جبانته من منطقة الجيزة إلى شمالها في منطقة أبو رواش التي تبعد ١٠ كيلو متر عن الجيزة. ولقد اختار هضبة عالية ليبني عليها هرمه وهذه الهضبة كانت منحدرة انحدارا مستقيما في جانبها الشرقي. ثم أن هرمه كان يختلف في فن بنائه عن أهرامات الجيزة وهو يشبه هرم الملك خوفو الموجود في المنطقة التي نسميها "زاوية العريان". أي أنه يحفر أساس الأهرام على مساحة واسعة جدا مربعة الشكل عميقة يتوسطها تابوته، والمدخل يبدأ من سطح الأرض وينحدر تدريجيا باستقامة إلى الجزء الأسفل حيث التابوت ويعتقد الأستاذ يونكر أن حكومة الملك ددف رع عمرت حوالي ثمانية سنوات.

شبسسكاف: خلف منقرع ولقد ذكر اسمه على لوحة بالرمو وربما كان ابن منقرع ونعرف عنه أنه حكم ما يقرب من أربع سنوات ولم نعثر له على هرم ولكن حجر بالرمو ذكر سنة من عصر هذا الملك سماها "سنة بناء الهرم" ولذلك بحث العلماء في منطقة أهرامات الجيزة عن هرم له واعتقد البعض أن هرمه هو ذلك البناء المتهدم الذي بقي منه أساسه فقط في منتصف الطريق بين معبد الوادي للملك خفرع ومعبده الجنائزي.

هرج الملك شبسسكاف المنطقة التي اعتاد أجداده أن يبنوا أهراماتهم فيها وهي منطقة الجيزة وذهب إلى سقارة وبني لنفسه مقبرة ضخمة نشبه في شكلها التابوت بغطائه المقوس. وفي الجهة الشرقية منه بنى معبدا صغيرا يختلف في نظام بنائه كل الاختلاف عن معابد أهرامات الجيزة. وهذا البناء هو المعروف عند أهالي سقارة بمصطبة الفرعون.

يجدر بي هنا وما زلنا في الحديث عن الأسرة الرابعة أن أحدثكم قليلا عن الاكتشاف المهم الذي عثر عليه الدكتور سليم حسن في منطقة الأهرام بالجيزة وهذا الاكتشاف هو ما اصطلحنا على تسميته بالهرم الرابع وقد بنته ملكة لم تكن معروفة قبل ذلك اسمها "خنت كاوس" تعتبر في الغالب من أواخر الأسرة الرابعة. ويعتقد الكثير بأنها أخت الملك شبسسكاف. وبنت الملك منقرع ويتبين من المنظر العام أن الملكة اختارت موقعا في الجبل الغربي كان الجزء الأكبر منه عبارة عن صخرة مرتفعة جعلتها على شكل مربع وغطتها من الخارج بطبقة من الحجر الجيري الأبيض ثم أضافت إلى هذه الصخرة عدة أجزاء فتم لها الشكل الهرمي.

ومما سبق عرفتم أن لكل هرم معبدين معبد جنائزي يقام بجوار الهرم ثم معبد الوادي وقد أرادت هذه الملكة أن يكون معبدها الجنائزي منحوتا داخل الصخرة الطبيعية المكونة للجزء المهم من هذا الهرم أما معبد الوادي فقد عثر عليه بجوار معبد الوادي الخاص بهرم منقرع.

الأسرة الخامسة ٢٥٦٠ - ٢٤٧٠ ق.م

حكمت الأسرة الخامسة من حوالي عام ٢٥٦٠ إلى عام ٢٤٧٠

ق.م وعاصمة البلاد بقيت في منفيس وما جاورها وآثار هذه الأسرة معظمها موجود في سقارة ثم في أبو صير شمال سقارة وفي دهشور.

وتاريخ الأسرة الخامسة يظهر لنا مدى التطور الفكري والاجتماعي الذي وصلت إليه مصر بعد تلك الخطوات السريعة التي قطعتها الحضارة المصرية منذ الأسرة الأولى حتى آخر الأسرة الرابعة. وهو تطور طبيعي نراه ممثلا في حياة كل الأمم المتحضرة. هذا التطور الذي تدعو إليه بل تحتمه النظم الاقتصادية في بلد كمصر استمرت السلطة المركزية فيه قابضة على ناصية الأمور كلها قروناً عديدة. ومن الصعب بل من المستحيل أن تستمر هذه السلطة المركزية في تعسفها هذا قائمة بكل الالتزامات المطلوبة منها دون أن يأتي الوقت الذي تواجه فيه المعضلة الاقتصادية التي تواجهها كل الأمم الديكتاتورية الآن. ألا وهي نقص موارد الدولة واستنفاد كل مجهود الأمة لتحقيق فكرة أو هدف واحد.

وقد كانت السلطة المركزية في عصر الأسرات الأولى التي سبقت الأسرة الخامسة ونخص بالذكر الأسرة الرابعة قابضة بيد من حديد على جميع موارد الأمة فكانت صاحبة الحق في توزيع الأراضي على من تثق فيهم من الأسرات الغنية في مصر وكانت صاحبة الحق في السماح لرجال الدولة ببناء المقابر وصناعة التوابيت والتماثيل في معامل ومصانع الدولة وترى ذلك ظاهرا في كل مقبرة فيذكر صاحبها أن صاحب الجلالة الملك رضي عنه أو أعجب بمؤهلاته وأظهر هذا الرضى بأن أمر نحاتيه أن يصنعوا تمثالا لهذا الموظف ثم أمر بنائيه ببناء مقبرة له على أرض وهبها الملك له لهذا الغرض.

ثم وظائف الدولة الكبيرة مثل الوزير –قيادة الجيش– رئاسة الكهنة –حامل الختم الملكي– كانت منحصرة في يد أفراد البيت الملكي.

وما أن انقرضت الأسرة الرابعة وجلس ملوك الأسرة الخامسة على عرش مصر حتى ضعفت السلطة المركزية ووزعت الوظائف الكبيرة على أفراد من الشعب وأصبح لحكام الأقاليم شيء من النفوذ والسلطة المحلية ولو أنهم ظلوا متصلين كل الاتصال بالسلطة الرئيسية في العاصمة.

ثم هناك ظاهرة جديدة ظهرت في عصر الأسرة الخامسة. وذلك أن الأمة المصرية بدأت تبدي عنايتها بالبلاد الواقعة وراء حدودها وخصوصا بلاد النوبة بينما كانت الأمة في عصر الأسرة الرابعة تبذل كل جهودها وتصرف نشاطها في شئون داخلية مثل بناء أهرامات ضخمة ومعابد واسعة ولم تعن بالبلاد المجاورة لها الغنية بأخشابها ومعادنها وما حلت الأسرة الخامسة حتى رأينا البعثات قد تعددت، فأرسلت في عصر كل ملك بعثات إلى سوريا وإلى بلاد الصومال ثم إلى بلاد السودان فيما وراء الشلال.

ونحن إذا قارنا بين الأسرتين الرابعة والخامسة وجدنا أن أهم الاختلافات بين عصريهما هو من الناحية الدينية.

فإن الأسرة الخامسة هي التي جعلت الإله رع (إله الشمس) إلهاً للدولة ونحن إذا رجعنا إلى الماضي أي إلى ذلك العصر الذي وحدت فيه مصر لأول مرة لتذكرنا أن هيليوبوليس مقر عبادة الإله رع كانت عاصمة مصر المتحدة وفي عهد الأسرات الأولى حتى آخر الأسرة الرابعة كانت منفيس عاصمة مصر المتحدة. وفي عهد الأسرات الأولى حتى آخر الأسرة

الرابعة كانت منفيس عاصمة الدولة وكان إله الدولة فيها هو حوريس وعندما رجحت كفة كهنة هيلوبوليس وتمكنوا من الاستيلاء على الحكم قربوا بين الإلهين وأدمجوها وجعلوا منهما إلهاً واحدا سموه حوريس رع وصوروه على شكل إنسان له رأس الصقر وعلى رأسه قرص الشمس؛ وأحياناً صوروا قرص الشمس وجعلوا له جناحين هما جناحا الصقر.

ولقد كانت هيليوبوليس مدينة اشتهرت بمدرستها الفلكية حتى أن رئيس كهنتها لقب بالفلكي العظيم وإليها يرجع الفضل في وضع أساس الفكرة الدينية "كيف وجد العالم". فمن تعاليم كهنة هيليوبوليس أن الإله: "أتوم رع" أول آلهة المعمورة خلق من نفسه إلهين: شو وكان إله الفضاء ثم تفنوت آلهة الماء ثم تزاوج هذان فأنجبا "جب" إله الأرض و"توت" آلهة السماء فتزاوجا وأنجبا أوزوريس وإزيس ثم زيث ونفتيس وتزاوج الأولان فكان ولدهما حوريس الذي انتقم لأبيه من عمه زيث، وهذه المجموعة من الآلهة الناشئة عن التزاوج تسمى (تاسوعة هيليوبوليس)، هذا وهناك تعاليم أخرى عن خلق المعمورة ظهرت في مدرسة منفيس الدينية وهي تقول إن الإله بتاح هو أول آلهة العالم وهو الذي خلقه ثم أتوم كان فكرته وحوريس قلبه وتحوت لسانه وعلى ذلك استعان الإله بتاح بالفكرة والقلب واللسان في خلق العالم. ولقد بقيت هذه التعاليم بجانب تعاليم هيليوبوليس ولكن لم تصل في قوتها وانتشارها إلى ما وصلت إليه تعاليم هيليوبوليس.

ولم يتمكن الإله رع أن يصبح إلهاً للدولة إلا في عصر الأسرة الخامسة ولكن ظهرت في العصور التي تسبق الأسرة الخامسة بعض مظاهر

تدل على أن هذا الإله وجد بين رجال المناطق المجاورة يبجله ويعتقده: فمثلا نعرف أن ثاني ملوك الأسرة الثانية كان اسمه نب رع أي "الإله هو رع" ثم نجد ثلاثة من ملوك الأسرة الرابعة ذكروا رع في أسمائهم وهم ددف رع –خفرع– منقرع. وأيضا ظهور لقب خامس من ألقاب ملوك مصر ألا وهو "ابن رع" ظهر هذا اللقب في عصر الملك منقرع وهذا اختلاف كبير يبين لنا مركز الملك الديني فكما نعرف كان الملك حتى الأسرة الرابعة هو حوريس وكان يطلق على نفسه اسم الإله العظيم وفجأة أصبح الملك ابن الإله رع وليس هو الإله رع بنفسه، وفوق ذلك فقد اكتفى بأن يلقب نفسه "بالإله الطيب" وجعل "الإله العظيم" كصفة من صفات الإله رع.

هذا كله يدل على أن الملكية في مصر أخذت شكلا آخر وأن الإله وضع في درجة أعلى من درجة ملك مصر وكان ذلك كما ذكرت من أول الملك منقرع الذي بدأ بأن سمى نفسه ابن الإله رع وأخذت هذه الفكرة الدينية مظهرها الكامل في عصر الأسرة الخامسة.

بردية وستكار: ولقد وصلت إلينا بردية قديمة تحدث كاتبها عن ملوك الأسرة الخامسة.

هذه البردية اسمها بردية وستكار (وسميت بهذا الاسم تخليدا لاسم من عثرت عليها في مصر (مس وستكار) ولقد باعت هذه السيدة هذه الورقة البردية إلى العالم الألماني لبسيوس وانتقلت من هذا إلى متحف برلين ولا تزال باقية فيه.

وتدل لغة هذه البردية على أنها كتبت في عصر الأسرة الثانية عشرة

غير أن العصر الذي تحدث عنه الكاتب كان عصر الأسرة الرابعة ولقد ورد من أسماء ملوك هذه الأسرة خوفو وخفرع. وبدأ كاتب هذه القصة التي كتبت على بردية وستكار حديثه فقال:

ذات يوم لما كان الملك خوفو يحكم كلا البلاد قال لكبير رجاله وكان واقفاً أمامه: اذهب وناد جميع أبنائي ووزرائي لأسألهم عن شيء. فحضر أولاد الملك ووزراؤه ووقفوا أمامه وعندئذ خاطبهم قائلا: هل يعرف أحد منكم رجلا يمكنه أن يقص علي شيئا من أعمال السحرة.

وهنا كتب بعض القصص التي حكيت للملك من أولاده عن رجال قاموا بأعمال سحر عجيبة وعاشوا في أزمنة غابرة. وبعد أن انتهوا من ذلك تقدم إليه ابنه (حور ددف) وقال:

لقد سمعت جلالتك قصص السابقين التي لا يعلم صدقها أحد ولكني سأجلب رجلا لجلالتك يعيش في أيامك، فسأله الملك: ومن يكون هذا الرجل؟ فأجابه أنه رجل يدعى "ددي" له من العمر مائة سنة وعشر. يأكل كل يوم ٥٠٠ رغيف وفخذ عجل ويشرب مائة كأس من الخمر إلى هذا اليوم. وهو يعرف كيف يعيد الرأس بعد فصلها وكيف يجر الأسد وراءه. وهو يعرف زيادة على ذلك صور منازل تحوت التي يبحث عنها جلالتكم منذ زمان بعيد ليعمل مثلها في هرمه.

وفعلا أحضر الملك هذا الساحر وقام أمامه بكل أعاجيبه السحرية ونجح فيها كل النجاح.

ثم سأله الملك خوفو: وهل حقا ما يقال أنك تعرف رسوم منازل تحوتي؟ أجابه ددي ولا أنا لا أعرف هذه الرسوم ولكني أعرف مكانها.

فسأله الملك وأين هذا المكان؟ فأجابه ددي: يوجد صندوق حجري في غرفة اسمها غرفة السطح في مدينة هيليوبوليس وهي في هذا الصندوق وليس يقدر على إحضارها إليك إلا رجل واحد. فسأله الملك ومن يكون هذا الرجل؟ أجابه ددي: هو أكبر الثلاثة الأبناء الذين في جسم (رد-ددي) فقال جلالته: ومن تكون هذه السيدة فأجابه ددي هي زوجة أحد كهنة رع وقد علمت هي من رع بمولد هؤلاء الأبناء الثلاثة ولقد وعدها الإله بأن أولادها بالتتابع سيتولون الحكم على بلاد مصر.

فحزن الملك على ذلك ولكن ددي أكد له أنه -أي الملك خوفو- سيحكم ثم بعده أولاده ثم بعد ذلك أولاد هذه السيدة.

الأدب والفن: لقد تحدثت إليكم عن الانقلابات التي حدثت في مصر في عصر الأسرة الخامسة من الناحية السياسية والدينية والاجتماعية. وبقي علي أن أتحدث عن الناحية الأدبية والفنية:

عصر الأسرة الخامسة عصر غني بوثائقه الأدبية ولقد وصلت إلينا أوراق بردية دلتنا على مظاهر الفكر المصري في ذلك العصر.

ومن بين هذه الأوراق ما تحدث عن واجبات المصري كفرد في المجموعة وصاغها كاتبها (واسمه بتاح حوتب) في قالب نصائح وبين فيها للمصري قواعد الحديث ثم العادات المتبعة في الزيارة وواجب الابن نحو

أبيه ثم الصداقة وأسسها وحقوق الحاكم والتزاماته.

وأعطيكم الآن أمثلة من هذه النصائح:-

١) إذا دخلت مجلسا فتكلم فيما تعرفه والتزم الصمت إذا جهلت أمرا لأن الكلام صناعة وفن وهو أصعب من أي فن آخر.

٢) لا تعتمد على الثروة إذا أصبحت من أصحابها ولا تنس أنها هبة من الله وأنها لا تعطي لك الحق في احتقار من هو أصغر منك.

٣) إذا كنت صديقا لشخص فلا تكثر عليه الأسئلة ويكفي إخلاصك له ويمكنك إظهار صداقتك له من حديثك إليه.

٤) إذا دعاك كبير إلى طعام فاقبل ما يقدمه لك ولا تطل نظرك إليه ولا تبادره الحديث قبل أن يسألك. لأنك تجهل ما يوافق مشربه بل تكلم عندما يسألك فيعجبه كلامك.

٥) لا تخن من ائتمنك لتزداد شرفا ويعمر بيتك.

٦) إذا دخلت منزلا لغيرك فاحذر أن توجه ذهنك إلى خدر نسائه فكم هلك أناس من جراء ذلك.

٧) إذا كنت عالا فرب ابنك حسبما يرضي الله تعالى. وإذا شب على مثالك وجد في عمله فأحسن معاملته واعتمد به. أما إذا طاش وساء سلوكه فهذب أخلاقه وأبعده عن الشرور لئلا يستخف بأمرك.

٨) إذا كنت عاقلا فاتخذ لك زوجة. ودبر لنفسك منزلا. وأحب

زوجتك التي هي شريكتك في حياتك وقدم لها الطعام والشراب والملبس وأحضر لها العطور وأدخل عليها السرور. ولا تكن شديداً معها فباللين تملك قلبها. وأد مطالبها الحقة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك.

٩) لا تترك التحلي بحلية العلم ودماثة الأخلاق.

كذلك وصل إلينا من عصر الأسرة الخامسة والأسرة السادسة ما نسميه "نصوص الأهرامات". وهي مجموعة قديمة جداً نقشت على جدران حجرات الدفن في هذه الأهرامات. هذه النصوص ليست إلا الطقوس الدينية التي كانت تقام عند الوفاة. وفي أيام الأعياد. كتبت في قالب أغاني تحوي آمال وتمنيات الميت في الخلود. زد على ذلك أنها تشير إلى بعض العادات والنظم في العصر القديم. ولذلك فهي تعد مجموعة تاريخية سجلت تطور المصري في حياته وعقائده الدينية والاجتماعية.

أما الناحية الفنية فسوف يطول شرحها إذا أردت الإسهاب ويكفيكم أن تعرفوا أن الأسرة الخامسة كانت تختلف عن الأسرة الرابعة من ناحية الفن. فنحن إذا نظرنا إلى الأسرة الرابعة. وجدنا أبنيتها ضخمة عظيمة واسعة خالية من النقش والزخرفة. أعمدتها مربعة بسيطة. أما أبنية الأسرة الخامسة فكانت صغيرة بالنسبة للأسرة الرابعة. مزخرفة تكثر فيها الألوان والنقوش والرسومات. أعمدتها مستديرة أو مثمنة أو لها ١٦ ضلعا تنتهي بقمة كقمة النخلة أو كزهرة اللوتس.

أسماء ملوك الأسرة الخامسة

١) أوسر كاف.

٢) ساحو رع.

٣) نفر إركارع.

٤) شبسسكا رع.

٥) نفر إف رع.

٦) ني أوسر رع.

٧) منكاو حور.

٨) ددكا رع (اسيسي).

٩) أو ناس.

لقد بني كل ملك من ملوك الأسرة الخامسة هرما له ثم معبدا للشمس، وبذلك انفرد الإله بعبادة خاصة تقام في معبد خاص. هذه المعابد الشمسية كانت تختلف عن المعابد الجنائزية الملحقة بالهرم فكانت تبنى حول مسلة ضخمة مقامة على قاعدة عالية يبلغ ارتفاعها ٦٠ مترا. وكانت هذه المعابد لا تحوي صورة للإله أو تمثالا له. فإله الشمس لم يكن كالآلهة الأخرى التي تعيش على الأرض أو تختفي في جسم حيوان أو جماد فالشمس تسطع في السماء وترسل أشعتها على الأرض. هذه الأشعة كانت تتجمع على قمة هذه المسلة الذهبية ثم تنعكس ثانية إلى الأرض.

أوسر كاف: أول ملوك الأسرة الخامسة وكان من رجال الدين لم تقع في عصره حوادث تذكر لأنه كان مهتما بتوطيد سياسته في الداخل.

سحو رع: أما الملك سحو رع فكان أول ملك استغل هدوء الحالة في مصر وصرف همه إلى التوسع واتجه في سياسته إلى ما وراء الحدود. فأرسل أسطولا إلى بلاد فينقيا حيث هزم شعبها وأسر عدداً كبيراً منهم وجلب إلى مصر رؤساء القبائل وأولادهم ونساءهم ثم عدداً كبيراً من الماشية.

وكذلك اشتبك في حرب مع القبائل التي سكنت بلاد ليبيا وهزمهم شر هزيمة وأرسل أسطولا بحريا إلى بلاد بونت (الصومال) لجلب الأخشاب الثمينة. والصمغ والبخور كما أنه أرسل حملة برية إلى شبه جزية سينا.

ولقد حافظ الملوك الذين خلفوا سحو رع على عرش مصر على علاقاتهم السياسية فيما وراء الحدود وكانوا تارة يخفقون وتارة ينجحون في مهمتهم هذه يدفعهم إلى ذلك نضوب الثروة مصر واحتياجهم إلى توطيد سلطانهم على حكام الأقاليم الذين بدأوا يشاركون الملك في سلطته المركزية سالبين منه هذه السلطة رويداً وريدا.

ومما يؤسف له أننا مازلنا غير قادرين على إعطاء صورة واضحة لعصر كل ملك من ملوك الأسرة الخامسة الذين خلفوا سحو رع. وتكتفي مظاهر الحضارة في عصر هذه الأسرة.

الأسرة السادسة ٢٤٢٠- ٢٢٧٠ ق.م

لقد انتهت الأسرة الخامسة بموت ملكها الأخير أوناس ونجهل الدواعي التي أدت إلى انقراض هذه الأسرة كما لا نعرف هل أتت الأسرة بعد أن تزوج أول ملوكها بأميرة من بيت الأسرة الخامسة أم اغترت بالقوة. وكل ما نعرفه أن الأسرة الجديدة بقيت في منفيس وحكمها أسس الحكم القديمة.

وملوك هذه الأسرة هم:

١) تيتي: ويظهر أنه حكم طويلا ويقدرون مدة حكمه بعشرين عاما.

٢) أوسركا رع: ولا نعرف عنه إلا النزر القليل.

٣) بيبي الأول (ميري- رع) حكم ٢٠ عاما.

٤) مرنرع الأول: حكم ٥ أعوام.

٥) بيبي الثاني (نفركا رع): ولد تولى عرش مصر حينما أعوام وتولى العرش تحت وصاية أمه ولقد عاش مائة عام ويكون ٩٤ سنة وهي أطول مدة حكم فيها ملك أمة.

ونلاحظ أن عصر الأسرة السادسة كان عصرا حافلا بحوادث تهدم كيان الأمة المصرية وتقودها إلى الخراب لولا يقظة ووجود قواد بارعين في أساليب الحرب أخلصوا وتعاونوا في حدودها وضد ذلك الغبار الجارف من القبائل المهاجرة التي وهاموا على وجوههم لا هم لهم إلا الغزو والحرب وتدفقوا إلى مصر من حدودها الشرقية. ونحن نعرف أن القرن الخامس

والعشرين قبل الميلاد. كان ممتازاً بلقب قرن الهجرة. وذلك أن قبائل عديدة سكنت الجزء الغربي والشمالي من بلاد الفرس تحركت من أوطانها واتجهت مجتاحة كل ما وجد أمامها نحو الغرب والجنوب ووصلت في هجرتها إلى حدود مصر مجتازة في طريقها بلاد الأموريين والكنعان ثم فلسطين.

ولقد استطاع الملك بيبي الأول أن يقضي على الغزاة وتمكنت مصر في ذلك العصر أن تتقى شر هذه القبائل طوال الأسرة السادسة ولو أنها فشلت في التغلب عليهم لوقعت في المأزق الذي وقعت فيه عندما هاجمها الهكسوس في عصر الأسرة الثالثة عشرة فدخلوها وخربوا معابدها وأبادوا حضارتها ورجعوا بمدنيتها أجيالا إلى الوراء.

العهد الإقطاعي ومظاهره:

ولقد عرفنا أن الأسرة الخامسة أسست من بين كهنة الإله رع وكان من المعقول أن هؤلاء الملوك وجهوا جل عنايتهم إلى الأمور الدينية. أرادوا بذلك أن يوطدوا ملكهم بتوطيد دينهم ومعتقداتهم ولكن في نفس الوقت أغفلوا قليلا شئون السياسة وجعلوها تفلت من أيديهم وتتركز في أيدي رؤساء الأقاليم الذين انتهزوا هذه الفرصة وأخذوا يعملون على جمع السلطة في أيديهم ونجحوا في ذلك كل النجاح بل تمادوا إلى أكثر من هذا وجعلوا مناصبهم وراثية يتولاها الأبناء عن الآباء وتركوا العاصمة وأسرعوا إلى ولاياتهم ومكثوا فيها لا يتركونها إلا إذا تحتم عليهم ذلك. أما قبورهم التي كانت تبنى حول هرم ملك مصر بإذن خاص منه فقد أصبحت الآن تبنى في الأقاليم بالقرب من مدنهم. بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك. إذ أنهم

بعد أن شعروا بسلطتهم أحاطوا أنفسهم بالحرس والموظفين وأصبح كل منهم أشبه بملك صغير وسموا أنفسهم (أمراء الأقاليم العظام) بدلا من حكام الأقاليم. هؤلاء الأمراء أصبحوا قوة يخافها كل من جلس على عرش مصر وهذا هو ما حدث فعلا إذا أن ملوك الأسرة السادسة بدؤا حكمهم بأن توددوا إلى هؤلاء الحكام وأمعنوا في التودد فكانوا يضيفون أبنائهم في القصور الملكية ويربونهم مع أبنائهم. ولم يكن هذا التودد لخوفهم منهم فقط بل كان أيضاً سياسة أرادوا به أن يضمنوا ولاءهم للعرش. وكانوا يستميلونهم إلى سكنى العاصمة كي يتمتعوا بنعيمها وينغمسوا في ملاذها فيلهيهم ذلك عن التفكير في الجاه والسلطان.

ونحن نكاد نشبه ذلك العصر بالعصر الإقطاعي في أوروبا الذي حدث في القرن الخامس والعاشر بعد الميلاد حيث كان حكام الأقاليم الذين يلقبون (بـ الدوق والكونت والمركيز) لهم من السلطة ما جعل الملوك يخرجون بجيوشهم لمحاربتهم وسلب السلطة منهم وإضعاف شوكتهم كما حدث ذلك من ملوك الكارولينجين

ولكن هؤلاء الحكام استطاعوا أن يستردوا سلطتهم مرة أخرى بعد موت شارلمان.

بيبي الأول: وقد كان الملك بيبي الأول بلا نزاع أقوى وأعظم ملوك هذه الأسرة فسياسته الداخلية كانت ناجحة إذ تمكن من أن يستميل حكام الأقاليم وبذلك أمن جانبهم وتفرغ للشؤون الخارجية. ولقد استعان بخدمات رجل فذ حكيم من بين موظفيه اسمه أوني أولاه كل ثقته وجعله

قاضياً ثم كاهنا ثم ناظرا على أملاكه ثم قائداً أعلى لجيوشه.

ولقد نجح أوني هذا في محاربة قبائل البدو الذين هاجموا حدود مصر الشرقية. ولقد جمع جيشاً جراراً من المصريين والنوبيين والليبيين واضطر أن يصد هجماتهم خمسة مرات وفي كل مرة يوقع بهم خسائر فادحة ويطاردهم إلى مدنهم ويخربها ويتركها قاعا صفصفا. ثم بعد ذلك اضطر أوني هذا نزولا على أمر ملكه بيبي الأول أن يذهب مرة سادسة إلى فلسطين على رأس حملة بحرية نجحت كل النجاح وفتك بالعدو ورجع سالما.

مرنرع: ولقد دام حكم بيبي الأولى عشرين عاما كانت مصر فيها تتمتع بعصر ذهبي لم تر مثله في عصر أي ملك آخر من ملوك الأسرة السادسة. ولما مات بيبي الأول خلفه ابنه مرنرع الذي احتفظ بالوزير أوني ورقاه إلى حاكم الجنوب وذلك لظهور الاضطرابات في بلاد النوبة واضطراره أن يوجه همه الآن إلى هذه البلاد لإرجاع السكينة والهدوء إليها. وفعلا توجه أوني إلى بلاد النوبة على رأس جيش كبير وتمكن من هزيمتهم وجعل حدود مصر وراء الشلال الثاني ورجع بغنائم لا عد لها إلى مصر.

بيبي الثاني: عاش الملك مرنرع مدة قصيرة ومات بعد أن حكم خمس سنوات وخلفه أخوه بيبي الثاني وهو في السادسة من عمره وكما قلت لكم عاش حتى بلغ المائة فكانت مدة حكمه أطول مدة عرفها التاريخ.

ولقد مات أوني في أوائل عصر هذا الملك وخلفه في منصب حاكم الجنوب رئيس أسرة كانت تحكم جزيرة الفيلة التي تواجه أسوان واسمه حرخوف.

ولقد قام حرخوف بعدة حملات إلى بلاد النوبة وتوغل فيها وتمكن من الوصول أيضا إلى ما وراء الشلال الثاني وأخضع القبائل الثائرة هناك.

وفي أواخر أيام بيبي الثاني انتهز أمراء الأقاليم فرصة ضعفه لشيخوخته واستعادوا كثيرا من سلطتهم وجبروتهم وبعد وفاته خلفه ملوك ضعاف حكموا مدداً قصيرة.

الحالة الفكرية في الدولة القديمة

يصعب علينا أن نشبه المصري بالإغريقي في ناحيته الفكرية. فالمصري لم يهتم بالعلوم من ناحيتها العلمية المحضة كما فعل الإغريقي بل اهتم بها من ناحيتها العلمية. فما استفاد منها عملياً درسه وتعمق فيه. ومن العلوم التي اهتم بها الفلك والحساب والهندسة والطب. ونخص الطب بالذكر وخصوصا بعد أن ظهرت الورقة البردية الني نسميها بردية أدوين سميث؟ (هذه الورقة كتبت في عصر يسبق الأسرة الثانية عشرة ولكن في أسلوبها وتراكيبها الفقهية ما يثبت أنها ألفت في الدولة القديمة) هذه الورقة تحدثت بإسهاب عن التقسيم الأناتومي لكل أعضاء الجسم ثم ذكرت دواء كل مرض وحظرت على الطبيب أن يصف الدواء قبل أن يشخص الداء.

ولقد ذكر لنا هيرودت أن الطب في مصر متقدم إلى درجة جعلت لكل نوع من الأمراض طبيبا خاصا وقال إن هناك في مصر أطباء مختصين بالعيون وآخرين بالأسنان ثم بالأمراض الباطنية. ولقد أثبتت الأبحاث صدق هيرودوت وخصوصا الحفريات التي عملت في منطقة الجيزة أن كشفت لنا مقابر لأطباء مختلفين. ولقد عثر الأستاذ يونكر في منطقة الجيزة على جثة لامرأة ظهر فيها تقدم طب الأسنان ظهورا جلياً إذ أن إحدى أسنان هذه السيدة ربطت وثبتت بواسطة سلك ذهبي بالسن المجاورة. ولقد دلتنا ألقاب هذه الطائفة على نظامها الدقيق وتقسيمها البديع المؤسس على آثار الطبيب ومجهوده الشخصي فهناك الطبيب ثم رئيس الأطباء ثم

طبيب الملك ورئيس أطباء البلاط بل هناك أيضاً طبيب أسنان الملك ثم رئيس أطباء الأسنان في البلاد الملكي. وهكذا.

وإن نظرة بسيطة نلقيها على أبنية الدولة القديمة من أهرامات ومعابد ومصاطب ترينا تفوق المصري في علوم الهندسة الحساب والعلوم الرياضية بأجمعها.

أما النظم الاجتماعية والكمالات الخلقية التي كان يرنو إليها المصري فقد رأيناها واضحة في النصائح التي ذكرتها لكم والتي خلفها لنا الوزير بتاح حوتب.

عصر الاضمحلال الأول

وهو العصر الذي يفصل بين الدولة القديمة التي انتهت حوالي ٢٢٧٠ والدولة الوسطى التي بدأت حوالي ٢٠٠٠ ق.م.

لقد عاش بيبي الثاني قرنا كاملا حكم البلاد منه ٩٤ سنة وبذلك طالت مدة حكمه وقضى على الأسرة السادسة وانجلت بموته. وخلفه ملوك على عرش مصر لا نعرف عنهم شيئا والسبب في ذلك عدم عثورنا حتى الآن على آثار تحدثنا عنهم. ومن هذا تروننا مضطرين أن نعتمد فقط على القوائم التي وصلتنا عصور متأخرة وذكرت لنا أسماء بعض الملوك من هذا العصر. نحن نعرف من هذه القوائم (الجداول) إن ملكا اسمه مرنرع الثاني خلف بيبي الثاني على العرش. وأن مدة حكمه كانت سنة واحدة. ويقول مانتون أن سيدة اسمها نيتوكريس تولت عرش مصر بعد ذلك. ويقول أيضا أن مصر حكمت بسبعين ملكا كل ملك منهم حكم يوما واحد. وهؤلاء كانوا ملوك الأسرة

السابعة. وإذا صح هذا كان ملوك الأسرة السابعة ليسوا إلا أكبر رجال الدولة المصرية الذين أقاموا من أنفسهم مجلسا نشبهه بمجلس الوصاية على العرش وحكم كل منهم يوما واحدا حتى تستتب الأمور وينتخب الملك على مصر. وعلى ذلك نرى أن من الواضح أن الأسرة السابعة لم تكن أسرة وأن ملوك هذه الأسرة لم يكونوا ملوكا.

ومانيتون عرف ملوك الأسرة الثامنة وعد منهم ١٨ ملكا حكموا ١٤٦ سنة ولكن جدول بردية تورين (وهذه البردية تهشمت وخصوصا في الجزء الذي يتحدث عن هذا العصر) يذكر بعد الملك مرنرع الثاني ثمانية ملوك وأعطى للسبعة الملوك الآخرين (الذين انتهت بهم الأسرة) سبعة سنوات أي أن كلا منهم قد حكم سنة واحدة. وجدول سقارة ذكر بعد ملوك الأسرة السادسة ملوك الأسرة الحادية عشرة تاركا كل ما يتعلق بملوك الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة بينما جدول أبيدوس ذكر بعد الملك مرنرع الثاني ١٧ اسما لملوك نرى تشابها بين أسمائها وأسماء الأسرة السادسة، فمثلا خمسة منهم كانوا يسمون باسم بيبي الثاني نفركارع وأحد هؤلاء الملوك كان اسمه نفر– أبرركا– رع (وهو كما تعرفون اسم ثاني ملوك الأسرة الخامسة) من هذا نرى أن هذه الأسرة اعتلت عرش مصر لأنها كانت تمت بصلة القرابة إلى الأسرة السادسة ولكن للأسف ما زلنا غير قادرين على التوفيق بين أسماء جدول أبيدوس وجدول بردية تورين. وبين الملوك الذين ذكرهم مانيتون.

وليس السبب في عدم معرفتنا عصر الأسرة الثامنة هو عدم عثورنا

على آثار لهؤلاء الملوك فحسب بل أيضا لأن مقابر أشراف هذا العصر (ولدينا منها الكثير في سقارة وفي دندره) لم تذكر اسما من هؤلاء الملوك، بل عند الحديث عنهم يذكرون فقط اسم "صاحب الجلالة" ولقد أصبح حكام الأقاليم أصحاب السلطة في أقاليمهم. وأكبر مثل على ذلك أن أحدهم ويدعى حنقو قال في نصوصه أنه حكم في أول الأمر مقاطعته بالاشتراك مع أخيه حم رع ثم حكمها بعد ذلك وحده. ولقد وصف هذا الرجل نفسه بشكل يجعلنا نشك في مقدرته على الحكم. فقد غالى في وصف محاسنه ومآثره. وكل من كان كذلك كانت هذه الخواص ناقصة فيه. لقد تحدث قائلا: موجها حديثه إلى أفراد شعبه.

"لقد كنت رجلا تقياً أحبني آباؤكم وأثنى علي أمهاتكم ولقد سعيت إلى دفن الكهول منكم كما آويت من فقد أباه وأمه. ولم أحاول مرة أن استعبد ابنة لأحدكم وأعطيت الطعام للجائع واللباس للفقير المعدم (للعريان) ولقد ملأت حقولكم بالماشية بل لقد أطعمت الذئاب في الجبل والنسور التي تحلق في السماء. ولقد أصلحت ما تهدم من أبنية مقاطعتي وملأتها بعد ذلك بالماشية والرجال الذين أخذتهم من مقاطعات أخرى (ولم يذكر لنا كيف تمكن من إحضار الرجال والماشية والمقاطعات المجاورة هل بالحرب والأسر أم بطرق سلمية) وأصبح بذلك من أستبعد قبلا من أصحاب الأراضي الآن".

هذا الوصف يعطينا أولا فكرة عن سلطة صاحب الحكم في المقاطعة وأنه أصبح الآن بعيدا كل البعد عن تلك السلطة الممثلة في مليك البلاد

الذي كان يقطن في ذلك الوقت أيضا منفيس. ومن ناحية أخرى تعطينا فكرة عن الحالة الاجتماعية في البلاد حيث الجوع والفقر والتهدم الظاهر في أبنية القوم وألا فلماذا فاخر حتقو بذلك ولماذا تحدث رجل آخر من هذا العصر بما يأتي (وهو من حكام مقاطعة أسيوط) قال بعد أن فاخر بأعماله وسعيه لإحلال الهدوء بين رجال مقاطعته: "وأصبح كل موظف يجلس في مقر وظيفته وانتهى القتال والفتك الذي كان يقضي على الطفل الذي جلس بجانب أمه ويسلب الرجل من امرأته".

ولقد كان هذا العصر عصر ثورات داخلية. أتى على وصفه بكل صراحة رجل اسمه ايبوور؟ وبعض فقرات مما قاله تعطينا فكرة عن حالة مصر في ذلك العصر قال.

"لقد انقلبت الحالة في مصر رأساً على عقب. حقيقة النيل لا يزال يجري ويأتي بفيضان ولكن لا يقدم أي مصري على حرث أرضه بل يقول كل منهم نحن لا ندري ماذا حدث بمصر. حقا لقد وقعت مصر في الهاوية ولقد عم الحزن البلاد وانتشر العويل. الأغنياء يولولون والفقراء عمهم الفرح ورجال كل مدينة يقولون: فلنقض على رجال السلطة الآن. ولهم الحق في ذلك إذ أن الذهب والفضة والأحجار الكريمة تكاثرت حول أعناق الخادمات (العبيد) بينما نساء البيوت (الطبقة الراقية) يهيمن على وجوههن ويقلن هل لنا من كسرة نأكلها. انظروا لقد فسد النظام وأصبح الناس كالماشية بدون راع لها. انظروا من كان في الوقت السالف يرتدي أحسن الملابس أصبح يسير الآن وعليه خرق. ومن كان لا يملك نولا

واحدا أصبح الآن يرتدي افخر أنواع الكتان. انظروا من كان لا يملك رغيفا يأكله أصبح الآن من أصحاب الشئون ولكن هذه يملؤها بغلال الآخرين. انظروا من كان معدما أصبح الآن من أغنياء البلاد، ومن كان غنيا أصبح فقيرا، الأسيويون قد انتشروا في البلاد وحضر الأجانب إلى مصر أفواجا وأصبح كل مصري له ضمير يسير والحزن يملؤه لما يحدث في البلاد إذ أن الأجنبي أصبح هو الآن ابن البلاد. حقاً إن الناس قليلون على الأرض ولكن في مصر أصبح كل أخ يقتل أخاه. لقد أصبح الجميع ينادون: ليتنا كنا أمواتاً والأطفال يقولون ليت أمهاتنا لم تلدنا".

ولقد اهتم الأستاذ يونكر (وهو من أكبر العلماء الألمان المشتغلين بالآثار) بهذا العصر وتمكن أن يستدل من حالة الآثار التي عثر عليها. على الحالة التي وصفها لنا ايبوور. فقد كانت كل المقابر التي بناها عظماء الأسرة السادسة وما قبلها في حالة سيئة تدل على الفوضى التي صرت في البلاد في ذلك الوقت. وكانت التماثيل منزوعة من مواضعها في المعابد ومهشمة إلى آلاف من القطع. وحجرت الدفن قد سرقت والتوابيت قد كسرت واستعملت بعد ذلك لبناء المقابر والمنازل وكذلك الأبواب الوهمية والمناظر الجميلة التي حفرت بإتقان على جدران المصاطب هشمت بطريقة وحشية.

هذه الحالة وهذه الثورة لم تؤثر فقط على النواحي الاجتماعية في مصر بل أيضا أثرت على الحالة الدينية وأصبح المصري يرى مثله العليا تصاب أمام عينيه بكل أذى ويلحق بها الدمار بطرق وحشية. أصبح الملك ألعوبة

في أيدي حكام الأقاليم. وأصبح أشبه بالسجن في عاصمته. وضاع بذلك مركزه الديني الذي تمتع به والذي وضعه طوال الدولة القديمة كله ثم في عصر الأسرة الخامسة والسادسة كابن الإله ولكنه كان في كلتا الحالتين الوسيط الوحيد بين دنيا الأرض ودنيا الآلهة. لم ير المصري هذا فقط بل رأى أيضا حياته الثانية التي كان يحيا على الأرض من أجلها وكان يعمل ويكد ويجهد نفسه ويجمع المال ويعلو بنفسه لكي يسهل لنفسه السبل التي تحفظ له الحق وتمكنه من حياة خالدة هانئة كلها سعادة إن الأمل فيها قد ضاع. رأى المقابر تسرق والتماثيل تهشم والمناظر والنقوش يهزأ بها ورأى أكثر من ذلك أن الجاني لا يعاقب وهنا تساءل المصري أولاً عن معنى الحياة. وثانيا عن أهمية اعتقاداته الدينية ولأول مرة في تاريخ مصر صادفتنا مثل هذه الأسئلة. وكلنا يعرف تماما كيف كان المصري يحرص على آلهته ويحرص على معتقداته. ولقد وصلت إلينا ورقة بردية محفوظة الآن في برلين كتبها رجل اسمه نيسو تساءل الرجل هل هناك من فائدة للحياة وقد حل بمصر الدمار وأصبحت الحياة هموما ومتاعب. وهو في تساؤله هذا لم يفسر لنا حالته الشخصية بل كان يتحدث عن المجموعة التي هو واحد منها ويحق له أن يكون مثلا عاما للمصريين وكيف لا يبحث عن الموت ويزهد في الحياة وقد تركت البلد لمجرميها يحكموها ويواصلون العبث ضد آلهتها وينتهكون حرمة معابدها ويطئون قومها بأرجلهم ويحلون العار بتاريخها المجيد.

أما النقطة الثانية التي تعرض لها فهي. المعتقدات الدينية: هل كان المصري القديم الرجل البسيط العادي يعتقد في الحياة الثانية وفي الخلود

وهنا انفردت بالرد .. فالرجل المصري الفاضل كان يحتفظ بمعتقداته ويود أن يذهب بسرعة إلى دنيا الخلود حتى يتمتع بما لم يكن متاحا له في دنيا الأرض) كطرف أول وبين قرينته (روحه) كطرف ثاني القرينة فكانت تطلب منه ألا يفكر في دنيا الخلود وألا يسعى وراء الحياة الدنيا بل يجب عليه أن يأخذ حياته كما هي ويبحث عن الفرح ويلهو به ويطرأ الحزن والهم ويقنع بما سمح له القدر به من حظ وحياة.

ويحق لنا أن نقول إن القرينة انتصرت وأن المصري كان قد تنحى عن ذلك العصر عن العقيدة الراسخة بحياة الدنيا الأخرى ويدلنا على ذلك تذكارية من عهد الأسرة الحادية عشرة نقش عليها الأغنية الآتية:

"كن سعيداً واجعل قلبك ينسى أنك ستموت يوما وأكثر من سعيك على الأرض حتى يحل اليوم الذي يندبونك فيه. فتأكد أن أوزوريس الدنيا الثانية لن يستمع إلى صراخهم ولا يمنع العويل الموت عن الحضور إليك، ولذلك فاحتفل بيومك السعيد ولا تجعل للتعب إليك سبيلا في هذا العالم ولا تنس أن من مات لن يعود إلى الحياة ثانية".

هذا العصر كان عصر فوضى قسم المصريين في معتقداتهم إلى قسمين: الأول يفضل المرح والسرور يسعى جهد طاقته أن يقنع بما هو فيه وفي نفس الوقت يحتقر الدنيا الثانية ولا يعتقد فيها. أما القسم الثاني فهو هؤلاء الرجال الذين عرفوا الحياة وشعروا بالأزمة ولكنهم لم يفقدوا الأمل وبقوا على اعتقادهم في الدنيا الثانية وأملوا أنفسهم بالسعادة فيها ولكن عرفوا أن هذه السعادة والتمتع لا ينالونها بما يضعون من أثاث فاخر

ومآكل متراكمة وملابس حريرية في المقبرة بل بما صنعوا في الحياة. فمن عمل صالحاً عاش حياة كلها متعة ومن كان مجرما ضيعت عليه آثامه التمتع في الحياة الثانية.

هذه الفكرة ظهرت لنا بعد ذلك واضحة في الدولة المتوسطة. فأصبح الميت يقدم أمام المحكمة التي تزن حسناته وسيئاته وعندئذ يلقي ملك الدنيا الثانية ورئيس المحكمة الإله أوزوريس بحكمه على ذلك الميت.

وأحسن مثل يضرب لذلك ما قاله بري كارع من الأسرة العاشرة محذرا للناس: لا تطمئن إلى حياتك الطويلة على الأرض فإن قضاة محكمة العدل ينظرون إلى سني حياتك كما لو كانت ساعة واحدة. الإنسان سيبقى بعد موته أعماله ستبقى بجانبه. سنحيى حياة الخلود في الدنيا الثانية وأحمق كل من لا يعتقد في دنيا الخلود. ومن يقدم أمامه (أمام أوزوريس) ويجده قد خلى من السيئات أبقاه وجعله يسير كالآلهة بحرية".

وعصر الاضمحلال الأول أوجد عقيدة جديدة نشأت وترعرعت ألا وهي عقيدة أوزوريس إله الموتى وملك الدنيا الثانية.

عصر حكام أهناسيا - الأسرتان التاسعة والعاشرة

في عصر الأسرة الثامنة وجد حكام اهناسيا (غرب مدينة بني سويف الحالية) الفرصة سانحة لكي يمدوا نفوذهم على ما جاورهم من المقاطعات آملين بذلك أن يسقطوا ملوك الأسرة الثامنة ويتقلدوا هم الحكم في البلاد ويكونوا أسرة من أنفسهم وعلى ذلك نعتقد بأن هؤلاء الحكام (أو الملوك حسب تسمية مانيتون) حكموا النصف الجنوبي من مصر في نفس الوقت

الذي كان فيه بعض ملوك الأسرة الثامنة يتقلدون مهام الحكم الوهمي في منفيس.

ومؤسس هذه الأسرة كان اسمه خيتي وتبعه ملكان آخران يحملان هذا الاسم ثم ملك ثالث اسمه بري كارع. ولا نعرف أسماء أخرى لملوك هاتين الأسرتين غير هؤلاء الملوك الأربعة.

ومن هذا العصر عثرنا على مقابر لحكام مقاطعة أسيوط وكانوا أيضاً يسمون أنفسهم **Cheai** ويظهر أن هذا الاسم كان منتشراً في ذلك العصر ولقد تحدث هذا الحاكم عن علاقته مع ملكه الذي أحبه وقال أيضاً أنه نشأ في بلاط أهناسيا وتعلم السباحة مع أولاد الملك بينما أمه قامت بإدارة شئون المقاطعة.

ولقد عثرنا على لوحة تذكارية لملك اسمه ختي (من ملوك هاتين الأسرتين) في جنوب مصر أي أنهم تمكنوا فعلا من حكم كل البلاد المصرية وتمكنوا بذلك من القضاء على ملوك الأسرة الثامنة ولكن هذا الحكم لم يبق لهم طويلا بل انفصلت عنهم المقاطعات التي بجوار طيبة وانضوت تحت لواء حكام طيبة وقد قام هؤلاء الحكام بحركة يناوئون بها حكم أسرة أهناسيا. وكونوا أسرة حكمت الجنوب بأجمعه بينما الشمال كان تحت حكم أمراء أهناسيا وبذلك يمكننا أن نقول، كما كانت الأسرة الثامنة والتاسعة تشتركان في الحكم اشتركت أيضا الأسرتان العاشرة والحادية عشرة في الحكم.

الدولة المتوسطة - الأسرة الحادية عشرة

نشأت الأسرة الحادية عشرة في طيبة وفي البلدة المجاورة لها المعروفة باسم أرمنت الواقعة على الجانب الغربي من النيل ولقد تبادل الحكم أفراد عائلة انتف ومنتوحتب.

وعلى ذلك كانت مصر في هذا العصر منقسمة إلى ثلاثة أقسام. الدلتا وكان يحكمها أجانب حضروا إلى مصر من أسيا وذكرهم Tpu-wer في حديثه ووصفه لحالة مصر ثم مصر الوسطى حتى أسيوط وكان يحكمها أفراد أسرة خيتي وهم ملوك الأسرة العاشرة المعروفون بحكام أهناسيا ثم الجنوب حتى أسوان ويحكمه أفراد أسرة أنتف.

ولقد اشتد النزاع بين حكام طيبة الذين منهم يتكون ملوك الأسرة الحادية عشرة وبين حكام أهناسيا الذين منهم يتكون ملوك الأسرة العاشرة.

وهناك صعوبة في ترتيب ملوك الأسرة الحادية عشرة فمانيتون ذكر ١٦ ملكا حكموا ٤٣ سنة بينما بردية تورين ذكرت ٦ ملوك فقط حكموا ١٦٠ سنة ولكن الغريب أن ما وصل إلينا من آثار هذه الأسرة دلتنا على أن ملوكها كانوا أكثر من ستة. ونحن نعرف من ملوك هذه الأسرة أربعة سموا باسم انتفت وستة آخرين سموا باسم منتوحتب وكما قلت يظهر أن عائلة منتوحتب هذه كانت فرعا آخر لعائلة انتف.

ولقد خلدت لنا بعض الآثار الكفاح الذي قام بين حكام طيبة وحكام أهناسيا ونذكر مثلا ما كتبه وزير انتف الرابع واسمه زيني الذي قاد

الجيوش ضد حكام أسيوط وعلى الأخص الحاكم تف إيب الذي كان يحارب في صف ملوك أهناسيا. ولقد بقيت هذه الحرب سجالا بين الطرفين طوال حكم أربعة من حكام طيبة اسمهم انتف وبين اثنين آخرين اسمهما منتوحتب حتى تمكن منتوحتب الثاني من أن يسجل لنفسه النصر وتمكن من إخضاع الشمال. وأن ينتصر انتصاراً كاملا على ملوك أهناسيا وأمكن ملوك طيبة أن يرجعوا التوحيد الكامل إلى مصر وأن يجعلوا منها أمة واحدة.

وخلف منتوحوتب الثاني ابنه منتوحوتب الثالث ويظهر أنه شعر بقوته الداخلية ولذلك اتجه بأطماعه نحو الجنوب وغزا بلاد النوبة ونجح في غزوته هذه والدليل الساطع على استتباب إلا من في مصر أن هذا الملك تمكن من بناء مقبرة ضخمة في المكان الذي نطلق عليه الدير البحري هذه المقبرة بنيت بشكل آخر يختلف كل الاختلاف عما بني في عصور مصر السابقة.

ثم تبعه منتوحوتب الرابع الذي حرص على الاحتفاظ بعلاقات مصر التجارية بالمناطق التي فتحها أبوه في الجنوب. وهناك نص يحدثنا بأنه جلب ثلاثة آلاف مصري جمعهم من بلاد الدلتا وأرسلهم في بعثة كبيرة إلى وادي الحمامات لقطع الحجر. ولقد نجحت هذه البعثة الهائلة كل النجاح وخصوصاً النظام الدقيق الذي اتبع إذ أن كل رجل كان يأخذ يومياً إبريقين من الماء وعشرين قطعة من الخبز ولكي يتغلبوا على وعورة الطريق اضطروا أن يحفروا ١٥ مترا على طول الطريق. ولما وصل هنسو إلى شواطئ البحر الأحمر بني هناك مركبا كبيرا سافر به ومعه بعض رجال البعثة إلى بونت.

وكذلك منتوحوتب الخامس وكذلك منتوحوتب السادس أرسلا البعثات الكبيرة إلى وادي الحمامات لقطع الأحجار.

الدولة الوسطى ٢٠٠٠ - ١٧٨٨ق م

لقد قدر لمصر مرة ثانية أن تستعيد مجدها وأن ترى عصرا ذهبيا في عصر الأسرة الثانية عشرة. ولكن يجب ألا ننسى عند المقارنة بين القصر الذهبي الأول (في الدولة القديمة) وعصر الدولة الوسطى الذهبي ذكر الاختلاف الكبير بين ملوك تلك الدولة وهذه الدولة. لقد تمكن ملوك الدولة الوسطى أن يستعيدوا مركزهم وأن يحكموا مصر متحدة وإن يسيطروا على كل كبيرة وصغيرة فيها ولكن مع هذا لم يكن لهم ما كان لملوك الدولة القديمة لقد عرفنا ملوك الدولة القديمة آلهة لهم سلطانهم في دنيا الآلهة كما كان لهم سلطانهم على الأرض ولكن عصر الاضمحلال الأول سلب الملوك كل ما كان لهم وأصبحوا أشباحا يتلاعب بهم حكام الأقاليم فإن أرادوا ناصروهم وإن أرادوا ثاروا عليهم وبقي الحال هكذا حتى عصر الأسرة الحادية عشرة وتمكن حكام مقاطعة طيبة أن يهزموا حكام أهناسيا وكتب النصر لهم واستطاعوا أن يرجعوا إلى مصر اتحادها وبطشوا بحكام الأقاليم الذين ناوؤوهم ولكن هذا كله لم يحدث إلا بعد أن استعانوا بمساعدة بعض الحكام الذين أملوا في توسيع نفوذهم وسلطتهم إذا ما تم النصر ثم إن ملوك الأسرة الثانية عشرة ساروا على منوال ملوك الأسرة الحادية عشرة بأن وطدوا سلطة الملك بالإيقاع بين الحكام والاستعانة ببعضهم ضد البعض الآخر وهكذا كان أو أصبح لملوك هذه الأسرة أن يتغنوا بنصرهم وإعادة

الاتحاد بين أقاليم مصر ولكن في نفس الوقت تركوا بعض السلطة للحكام الذين ساعدوهم على نيل هذا النصر. وعلى ذلك فالسلطة المطلقة التي تمتع بها ملوك الدولة القديمة لم تكن لملوك الدولة الوسطى.

ولكن هذا لا يمنع البتة أن يكون العصر الذهبي المتوسط قد بلغ في أهميته وتقدمه ما بلغه عصر الدولة القديمة الذهبي. فالحرب الطويلة التي قاستها مصر والاضطراب الذي شملها طوال هذا العصر والمحنة التي شعر بها كل مصري ساعدت في نضوج المصري على وجه الإطلاق.

ثم بينما كانت العاصمة والملك هما موضع السلطة ومنهما فقط تستمد مصر بأجمعها قوتها ونشاطها ويقدمها في سبيل المدنية أصبح الآن بجانب العاصمة مراكز أخرى تهتم بمظاهر الحضارة وتعمل على ترقيتها وتنميتها تلك المراكز ليست هي إلا قصور حكام الأقاليم.

ملوك الدولة الوسطى

١) أمنمحعت الأول (حوالي ٢٠٠٠ إلى ١٩٧١).

٢) سنوسرت الأول (حوالي ١٩١٧ إلى ١٩٣٦).

٣) أمنمحعت الثاني (" ١٩٣٦ إلى ١٩٠٣).

٤) سنوسرت الثاني (" ١٩٠٣ إلى ١٨٨٨).

٥) سنوسرت الثالث (" ١٨٨٨ إلى ١٨٥٠).

٦) أمنمحعت الثالث (" ١٨٥٠ إلى ١٨٠١).

٧) أمنمحعت الرابع ("١٨٠١ إلى ١٧٩٢).

٨) الملكة سبكنفرو رع ("١٧٩٢ إلى ١٧٨٨).

أمنمحعت الأول: ملوك هذه الأسرة لا ينتمون إلى ملوك الأسرة الحادية عشرة ولم يمتوا إليهم بصلة القرابة ويظهر ذلك جليا من الاختلاف في الأسماء. ولكنا نعرف أن أمنمحعت كان يتقلد أكبر المناصب في أيام منتوحوتب الثالث وبقى متقلدا هذه المناصب حتى أخر ملوك الأسرة الحادية عشرة (منتوحتب السادس) وتحدثنا بعض النصوص أنه نشأ في مدينة الكاب وأن أمه كانت زنجية ولعل ذلك السبب في اختلاف تماثيله إذ أن ملامحه تدل على ذلك الأصل إذن فأمنمحعت الأول اغتصب الملك ولعله استعان على ذلك ببعض الحكام وخصوصا لأن حاكم مقاطعة بني حسن واسمه خنوم حوتب ذكر لنا أنه حارب في صف هذا الملك وكان هذه الحرب بحرية واشترك فيها ٢٠ سفينة كبيرة ولكنه لم يذكر العدو ولأنها وقعت في مصر وعلى النيل نظن أن العدو لم يكن إلا بعض الحكام المناوئين لأمنمحعت. ويساعدنا على هذا الظن ما كتبه حفيد خنوم حوتب في مقبرته وقد حدثنا قائلا:-

"لقد استعان أمنمحعت الأول بمساعدة جدية. وتمكن الملك من هزيمة الأعداء وأعاد بنا ما هدم وأرجع حدود كل مقاطعة إلى ما كانت عليه حتى يعرف كل حاكم حدوده ولقد صنع ذلك لأنه كان يعرف هذه الحدود واستعان على ذلك بالمخطوطات والكتب القديمة. ولقد صنع هذا لأنه (الملك) يحب العدل كل الحب".

إذن صادف أمنمحت الأول عقبات كثيرة في أول حكمه ومن البديهي أن أول هذه المشاكل كانت رغبة أمراء الأقاليم الاستمرار في استقلالهم والانفراد بالحكم في أقطاعاتهم وكما قلت لم يكن من الميسور أخذ هؤلاء الأمراء بالشدة لأنهم ما زالوا أقوياء كذلك على ذات المقابر الهائلة التي حفروها في الصخور كل بالقرب من عاصمته ولدينا مقابر بني حسن (مركز أبو قرقاص) لأمراء المنيا ثم مقابر البرشة "مركز ملوي" لأمراء الأشمونيين ثم مقابر مير "مركز منفلوط" لأمراء أسيوط.

عمل أمنمحعت الأول على التفرقة بين هؤلاء الأمراء ومن والاه واعترف بحكمه سمح له بقسط كبير من الاستقلال الداخلي وأبقى عليه ما كان لأسلافه من التزامات وواجبات كرفع الضرائب وإمداد الملك بالجيوش عند الحاجة.

ثم عرف أمنمحعت الأول بعد بلدة طيبة من منتصف القطر وبالتالي بعدها عن الشمال فتركها وبنى عاصمة جديدة في نقطة تتوسط مصر على بعد ٣٠ ك.م إلى جنوب منف وسماها iat- Azwi (أي القابضة على الوجهين) ومكانها الحالي بالقرب من اللشت الحالية بمركز العياط وأصبح الآن يستطيع من هذه العاصمة أن يشرف على الدلتا وعلى مصر العليا.

وبعد أن استتبت الأمور في مصر اتجه بفتوحاته إلى بلاد النوبة وأخضعها وتوغل فيها حتى كورسكو واستغل مناجم سينا ووادي الحمامات.

ولكن يضمن العرش لابنه من بعده وقد رأى المصاعب الجمة التي

لاقاها في حكم البلاد سن سنة جديدة ألا وهي إشراك الابن الأكبر في الحكم مدة حياته وتدريبه عليه وبذلك أشركه في السنة العشرين من حكمه وهذه السنة الجديدة سار عليها كل ملوك الأسرة ١٢ تقريباً.

ومن القريب أن هذا الملك الفذ القدير قوبل في أواخر حياته بنكران الجميل من حاشيته فدبر بعضهم مؤامرة لاغتياله ولكنه نجا منها وأثرت في نفسه هذه الحادثة وأوصى ابنه أن يقسو في معاملة مرؤوسيه لأن الناس "يحترمون كل من يخيفهم ويفزعهم" ثم قال له أيضاً لا تثق بأخ ولا تعط قلبك لصديق.

أعطيت المحتاج وحميت اليتيم ولم أفرق بين الفقر وصاحب الجاه ولكن من أحسنت إليهم ثاروا في وجهي وقلما يجد الإنسان حليفاً له عندما تشتد المصائب.

لم يعش أمنمحعت الأول طويلاً بعد نجاته هذه وعندما مات كان ولي عهده سنوسرت الأول وأمير من أقاربه (اسمه سنوحي) يحاربان الليبيين فلما بلغهما نعى الملك عاد أولهما إلى العاصمة ولكن سنوحي فر لسبب غامض إلى فلسطين. وعاش هناك مدة طويلة عاد بعدها إلى مصر بإذن من سنوسرت وروى ما حدث له منذ وفاة أمنمحعت وتعتبر قصته من القصص المصرية الشهيرة.

سنوسرت الأول: لقد تقلد أمور الحكم بعد موت أبيه وكان قد تدرب عليها سنين عدة في حياة والده.

وذهب في أول حكمه بجيوش إلى حدود الشلال الثاني وتغلب على بلاد الكوش ولأول مرة يقوم ملك بحملة حربية يرافقها وتكون تحت إمرته بينما ملوك مصر من قبله كانوا يعهدون بمثل هذه الحملات لا مراء الجنود والقواد.

وبعد أن تغلب على البلاد الواقعة بين الشلال الأول والثالث عين حاكماً هناك وكان مقره قلعة قمة وهذا الحاكم كان من أمراء أسيوط واسمه حاب جافي الذي ترك لنا نصوصا تاريخية هامة في مقبرته بأسيوط (المعروفة الآن بإسطبل عنتر) في هذه النصوص وضع نظاما ثابتاً لكهنته هذا النظام يؤكد فيه قيام هؤلاء الكهنة بالطقوس الدينية في أعياد ذكرها لهم وحددها على أن يهب للآلهة ومعابدها أرضا يؤخذ ريعها ويصرف على خدمة الدين ولقد بينت لنا هذه النصوص الطبقات الموجودة في الأقاليم وكانت أربعة طبقات الأمراء وكبار القوم وصغار القوم والعامة.

ولسنوسرت الأول معبد كبير بناه في بلدة هيليوبوليس في غرب المطرية وهو مثل للمعابد المصرية كان له مسلتان يتقدمان البوابة الكبرى التي يرفرف عليها العلم الملكي الأبيض وهو العلم المصري وهذا المعبد اختفى تحت أظلال مدينة هيليوبوليس القديمة ولم يبق منه إلا المسلتان (وقد شيد الملك هذا المعبد للإله رع إله الشمس في هيليوبوليس) إحداهما لا تزال موجودة إلى الآن في عين شمس أما الأخرى فقد سقطت بعد زلزال أرضي حدث سنة ١٢٥٠ ق.م.

ولسنوسرت الأول عشرة تماثيل جميلة من الحجر الجيري وجدت حول مقبرته في اللشت وهي تمثل الملك جالساً واتجهت أنظار المصريين في عصر هذا الملك إلى الواحات فاستغلوها وعينوا حاكما عليها لكي يدافع عن حدود مصر الغربية.

ولقد شملت هذه العناية بالواحات أيضا مدينة الفيوم التي تعد جزءا من الواحات الغربية وقد أصبحت منذ مبدأ هذه الأسرة عاصمة لهم.

وذكر هيرودوت وتيودور الصقلي المباني الهائلة التي رأياها هنا وعلى الأخص قصر اللابرتت وما فيه من تماثيل هائلة الحجم للملوك وقالوا إن ملوك الأسرة ١٢ حولوا جزءاً كبيرا من أرض الفيوم إلى بحيرة يصرفون إليها المياه الزائدة من الفيضان ويأخذون طبعا منها عند الحاجة في أيام التحاريق والواقع أن بحيرة قارون أو (موريس) هي نتيجة انخفاض طبعي في الأرض أما بحر يوسف فإنه ينتهي إلى الفيوم ويدفع الماء الزائد منه إلى هذا المستوى المنخفض وعلى ذلك أراد المصريون أن ينتفعوا من مياه الفيضان الزائدة بأن عمقوا هذا المنخفض الطبعي وجعلوا منه بحيرة هائلة يصرفون إليها المياه ويخزنونها فيها من ناحية أخرى.

أمنمحعت الثاني وسندسرت الثاني:

لكل منهما هرم الأول بدهشور والثاني باللاهون. ولقد تمتعت مصر طول حكم هذين الملكين الذي دام خمسين عاما بالرخاء والرفاهية فاستغلت مناجم سينا واستؤنفت العلائق التجارية مع بلاد نونت حتى ألف أهلها رؤية المصريين وأخذ هؤلاء يذكرون تلك البلاد في قصصهم

ومن أظرفها قصة الملاح الغريق وهي تصف ما لاقاه ملاح مصري من مشاق وصعاب في سبيل وصوله إلى بلاد بونت.

على أن رخاء مصر ورفاهيتها وخصوبة أرضها كل ذلك جلب إليها المهاجرين الأسيويين فتجددت هجرتهم إلى مصر في عهد سنوسرت الثاني كما يتضح ذلك من نص ورد على جدران بني حسن يمثل وفدا جاء في السنة السادسة من حكم الملك سنوسرت الثاني وتألف من ٣٧ شخصا من البدو الساميين بين رجال ونساء وأطفال ارتدوا ملابس صوفية مزركشة وترك الرجال لحاهم وأسدل النساء شعورهن ومعهم حميرهم ألقى حملوها بالهدايا لحاكم منطقة بني حسن يتقدمهم رئيسهم يطلب من الحاكم الأذن لهم بالإقامة في مصر على أن يتخذوا التجارة مهنة لهم.

سنوسرت الثالث وضم السودان إلى مصر

يظهر أن سنوسرت الثالث هو الملك الوحيد من الأسرة ١٢ الذي لم تسنح له الفرصة أن يتدرب على شئون الحكم في عصر أبيه ومع هذا تمكن هذا الملك أن يحكم مصر حكما عادلا وأظهر من الحنكة والقدرة على الحكم ما لم يظهره أي ملك من ملوك هذه الأسرة. وعند تولية الحكم بدأ يعد العدة لضم بلاد السودان نهائياً إلى مصر فيقضي على التوترات المناوئة للحكم المصري ويعمل على أن يخضعها تماماً. وكان أول ما وجه إليه اهتمامه هو حفر ترعة توصل إلى ما بعد الشلال الأول حتى يتحاشا بذلك هذا الشلال الذي كان باستمرار عائقا لنقبل الجيوش اللازمة لفتح هذه المنطقة وأول من تغلب على هذا العائق كان القائد أوني "عصر الأسرة

السادسة" الذي حفر ترعة تخترق صخور النيل عند الشلال الأول ولكن مع مرور الزمن تهدمت هذه الترعة وبقيت هكذا حتى أتى سنوسرت الثالث فقام بالمشروع مرة ثانية وحفر الترعة وكان طولها ٨٠ مترا وعرضها ١٠ أمتار وعمقها ٨ أمتار.

حملاته– غزو النوبة: ونعرف أن سنوسرت الثالث قام بعدة هجمات على بلاد النوبة في السنة الثامنة والسنة السادسة عشرة والسنة التاسعة عشرة من حكمه وجعل من مدينة سمنة وقمة مراكز حربية ووضع لوحات حجرية كبيرة عند أقصى الحدود الجنوبية. ولكن يمنع تسرب الزنوج إلى مصر وضع عند الحد الفاصل بين مصر وبين النوبة لوحة حجرية كتب عليها:

الحدود الجنوبية. أقامها الملك سنوسرت الثالث في السنة الثامنة من حكمه حتى لا يستطيع أي زنجي أن يتعداها سواء كان مسافرا على الأرض أو على النهر سواء بمفرده أو مع قطعانه. ولكن إذا أراد زنجي أن متعداها فذلك فقط إذا كان ينوي التجارة في أرض مصر أو كان يحمل رسالة إلى مصر وعندئذ يجب أن يعامل بالحسنى. وعلى كل حال لا يسمح مطلقاً لأي سفينة أن تتعدى حدود سمنة في طريقها إلى الشمال.

ومن الطبيعي أن مثل هذه التعليمات التي يمكن حفظها إلا إذا كانت هناك حامية قوية تعمل على تنفيذها وقد سبق أن قلت أن سنوسرت الثالث بنى قلعة قوية في كل من سمنة وقمة ووضع في كل منهما حامية قوية. ولا تزال أملاك هاتين القلعتين باقية حتى الآن وهي تظهر لنا حنكة

سنوسرت في اختيار الموقع وأهميته في الدفاع عن الحدود المصرية.

إغارة كوش والبدو على حدود مصر الشرقية: وقبل السنة السادسة عشرة من حكم الملك سنوسرت الثالث يظهر أن أهالي كوش قاموا بحركة واسعة أغاروا فيها على حدود مصر الشرقية مشتركين مع البدو في هذه الإغارة فهزمهم الملك وخرب منازلهم وأهلك الحرث والنسل وأقام لوحة ثانية كتب عليها تعليماته عند الحدود عند قلعة سمنة وحذر كل الملوك الذين يخلفوه عن التعاون مع هذه الشعوب وكتب قائلا وليلحق العار كل ملك لا يستطيع أن يدافع عن هذه الحدود التي أقمتها. وبجانب هذه اللوحة أقام تمثالا هائلا لنفسه حتى يبعث الذعر والاحترام في قلوب هذه الشعوب الثائرة.

ويظهر أن سنوسرت الثالث كان يقود كل حملاته التي قام بها في بلاد السودان ويعد هذا الملك في نظر ملوك الأسرة ١٨ الفاتح الحقيقي والمستعمر الوحيد لبلاد النوبة حتى أنهم جعلوا منه إلاهاً محلياً لبلاد النوبة وعبدوه هناك (ص ١٨٢ من بتري).

وبذلك أصبحت مصر تعتبر حدودها الجنوبية بعد الشلال الثاني أي أنها امتدت ٣٠٠ كيلو متر نحو الجنوب.

غزو سوريا: ولم تعق هذه الحروب في بلاد النوبة سنوسرت عن الاهتمام بسوريا. فقد حدثنا قائد عاش في عصر هذا الملك واسمه Ehu Sobek على لوحة حجرية وجدناها في أبيدوس أنه تبع الملك في حملته ضد بلاد Sekmen في سوريا وهزمهم الملك وأسر منهم العدو الكثير بل

يحدثنا Ehu Sobek أنه رجع وقد أسر أجد هؤلاء القوم ولقد كافأه الملك على شجاعته وهمته قائلا:- لقد أعطاني عصا من الذهب في يدي وقوسا وخنجرا محلاة بالذهب وغير هذا أعطاني جلالته كل ما كان يملكه هذا الأسير الذي أسرته.

ظهور روح الشعب الحربية: ومما يؤسفنا أننا لا نستطيع البتة أن نعين تماما موقع Kekmen ولكن عصر سنوسرت الثالث هو أول العصور التي تظهر لنا الشعب المصري وقد أعجبته الحروب ودبت في جسمه الشجاعة والحنكة وأصبح يفاخر بما يقوم به في المعارك كما ستكون الحال في عصر الأسرة ١٨.

وكما انتصر سنوسرت الثالث في حروبه وفق أيضاً في نضاله مع أمراء الأقاليم الذين قويت شوكتهم مرة أخرى فاستطاع أن يتغلب عليهم ويقضي على ما كان لهم من نفوذ ويتضح ذلك من توقفهم فجأة في عهده عن نحت مقابرهم الصخرية الهائلة في أقطاعاتهم كما كان يفعل أسلافهم من قبل.

أمنمحعت الثالث: لقد حكم ستوسرت الثالث ٣٨ سنة قضاها جميعاً محاربا أو مصلحاً وعندما شعر بضعفه أشرك ابنه أمنمحعت في الحكم الذي أصبح بعده اسمه أبيه أمنمحعت الثالث. فورث مملكة واسعة الأرجاء موطدة الدعائم وكان بذلك عصره عصر سلام ورخاء وقد ساعده طول حكمه واستتباب السلم فيه وخصوصا بعد عهد أبيه المليء بالحروب على التوسع في المشروعات النافعة للبلاد.

وإذا كان سنوسرت الأول بدأ باستغلال مناجم شبه جزيرة سينا فإنه في عهد أمنمحعت الثالث استغلت هذه المنطقة استغلالا كاملا وفي عهده تحولت هذه المنطقة إلى منجم يجد الرجال فيه منازل تؤويهم وآبار يشربون منها وحاميات تصد عنهم هجمات البدو المشاغبين. وحدثنا أمتمحعت الثالث عن بئر حفرها في صخور الجبل في سرابوت الخادم في السنة الرابعة والأربعين من حكمه وعن معبد للآلهة حاتحور بناه هناك.

ولقد كانت كل البعثات ترحل إلى مناجم سينا عن طريق النهر وهنا يظهر أن النيل كان مرتبطا بالبحر الأحمر عند السويس بقناة هي بلا نزاع أقدم قناة كانت تصل أيضا البحر الأبيض بالبحر الأحمر وهذه القناة حفرت في عصر الملك سنوسرت الثالث.

اهتمامه بالري: وعصر هذا الملك (أمنمحعت الثالث) كما قلت هو عصر سلام ورخاء اهتم الملك بموارد مصر الطبيعية وحاول جهده أن ينميها ويوسعها وكان من الطبيعي أن يوجه كل عنايته إلى شئون الري. ولأول مرة نرى في قلعة سمنة عند الشلال الثاني موظفاً خاصا لا هم له إلا تسجيل ارتفاعات النيل في فيضانه وانخفاضاته في أيام التحاريق يسجلها هذا الموظف على أحجار الجبل المكونة للشاطئ هناك وهذا المقياس لا يزال باقياً حتى الآن ومنه نعرف أن النيل في عصر الدولة الوسطى كان يعلو في أيام فيضانه بما يتراوح بين سبعة وتسعة أمتار عن مستوى ارتفاعه الآن وقد كانت نتيجة هذه المقاييس لارتفاع النيل وانخفاضه تبلغ إلى الموظفين المختصين في مكتب الوزير وعلى أساس هذه المقاييس كانت تقدر وتجبي الضرائب.

ولقد اشتهر اسم أمنمحعت الثالث بعمله العظيم الذي قام به في الفيوم، في المنطقة الواسعة التي تبعد عن النقطة التي يتفرع منها النيل بحوالي ١٠٠ كيلو مترا إلى الجنوب والتي تعتبر واحة كبيرة بالقرب من مجرى النيل عرضها ٦٠ كيلو متر وكذلك طولها. وهذه الواحة الكبيرة منخفضة عن سطح البحر ويدل على ذلك الجزء الباقي من بحيرة موريس القديمة وهي ما نسميها الآن ببركة قارون فإن مستواها منخفض عن مستوى البحر بحوالي ٤٠ مترا. هذه المنطقة المنخفضة كانت تتحول إلى بركة هائلة في أيام الفيضان. وبقي الحال هكذا حتى عصر الدولة الوسطى وإذ بدأ ملوك هذه الأسرة (الأسرة ١٢) يفكرون في التحكم في كميات المياه الداخلية وحجزها في هذا المنخفض لاستغلالها في وقت انخفاض النيل. فبنوا عند المنطقة التي تتدفق منها المياه إلى هذا المنخفض سدا ضخما عاليا وبذلك منعوا المياه عن جزء كبير من هذا المنخفض استغلوه للزراعة.

وقد زاد أمنحمعت الثالث في بناء السور الضخم وأصبح في عصره طوله ٤٠ ك م وحجز بذلك المياه عن منطقة تبلغ في اتساعها (١١ ألف متر مربع) أو ما يقرب من ٢٠ ألف فدان تعد من أصلح أراضي القطر المصري للزراعة.

أما المياه التي حجزت في بحيرة موريس في أيام الفيضان فقد دلت الأبحاث الحديثة على أنها كانت كافية لتغذية النيل في أكثر أيام انخفاضه أي في مدة المائة يوم (من أول ابريل) وجعل مياهه عادية.

وكان من الطبيعي أن المنطقة التي حسر عنها الماء تصبح من

ممتلكات التاج وكيف لا تصبح من ممتلكاته وهي من أخصب بقاع مصر وليس هذا فقط بل يظهر أن هذه المنطقة أصبحت أحب بقعة إلى ملوك النصف الثاني من الأسرة الثانية عشرة وبسرعة البرق ظهرت مدينة كبيرة عرفت في العصر اليوناني بمدينة كروكوديلوبوليس أو ارسينوي حيث كان الإله سوبك (التمساح) يعبد وله معبد كبير فيها. ولقد عثر على مسلتين في ابجيج على حافة المنطقة التي انحسرت عنها المياه للملك سنوسرت الأول.

وفي الجهة الشمالية من هذا السد بنى أمنحمعت الثالث قصرا عظيما تبلغ مساحته ٢٥٠ في ٣٠٠ متر جعله مسكنا ومعبدا ومقرا لحكومته. وكان بهذا القصر اثنتا عشرة ردهة وثلاثة آلاف حجرة وفي هذا القصر الهائل كانت حجرات مخصصة لكل آلهة مصر المحلية وحجرات لاجتماع حكام الأقاليم الذين كانوا يأتون كل سنة إلى هذا القصر ومعهم الموظفون التابعون لهم ولكل منهم حجرته المخصصة له حيث يقوم كل منهم بعمل الحساب للأموال المطلوبة منه لخزانة الملك. ولقد رآه "سترابو" الذي حضر إلى مصر عام ٢٤ قبل الميلاد ورأى فيه أعجوبة من أعاجيب مصر ولقد استحق اسمه الذي شاع عنه ألا وهو "اللابيرينت" أي "قصر التيه" وذلك لأن الزائرين كانوا إذا ما دخلوه صعب عليهم الخروج منه وتاهو في ردهاته وحجراته المتعددة. ولقد شبه هذا القصر بقصر اللابرنت الكريتي الشهير في الروايات اليونانية الخرافية ولقد زال هذا القصر الفخم الذي وصفه سترابو بقوله: "من العجيب أن لكل حجرة سقف مكون من

قطعة حجرية واحدة وكذلك الممرات سقفت بقطع حجرية هائلة الحجم وحيث لم يستعمل أي شيء آخر للبناء مثل الخشب أو أي معدن آخر".

ولقد تمتعت مصر بعصر هذا الملك بما يقرب من نصف قرن وكان عصره ذهبيا عرف الناس أن يقدروه وأن يعتزوا به وقد قالوا في هذا الملك:

لقد سبب في خصوبة مصر أكثر من النيل.

وملأ الوجهين القبلي والبحري بالقوة.

وهو الحياة التي يستنشقها كل أنف.

وكنوزه الهائلة يطعم بها كل من تبعه.

وهو يعطي الحياة لكل من نحا نحوه.

خلف أمنمحعت ابنه أمنمحعت الرابع ولقد ورث أمة غنية وكنوزا لا آخر لها وشعبا يحب السلام وعاش في رخاء نصف قرن فلم يقابل الملك من الصعوبات ما يشحذ عن عزيمته فتهاون وترك الأمور تجري كما يسمح لها القدر أن تجري فانتهز أمراء الأقاليم الفرصة وبدؤا يعيدون إلى أنفسهم ما سلب من السلطة. ولما مات هذا الملك دون أن يترك ولي عهد ورثته ابنته سبك نفرو رع فضعفت الملكية ضعفا أدى إلى انتهاء الأسرة ١٢ وعصرها الذهبي الزاهر الذي دام ما يقرب من قرنين.

علاقة مصر بالأمم المجاورة في عصر الدولة الوسطى

لقد تحدثنا عن عصر الدولة المتوسطة بأنه كان عصراً ذهبيا ولقد تحدثنا أيضاً عن أوجه الشبه بين هذا العصر وعصر الدولة القديمة وكما

كان الحال في الدولة القديمة لم تكن علاقة مصر بما جاورها في عصر الدولة الوسطى علاقة غزو وفتح بل كانت علاقة أمة تود السلام وفي نفس الوقت مستعدة للدفاع عن حدودها ولم تتعد تلك الحدود إلا لمطاردة العدو والانتقام منه ولكن نستثني من ذلك تلك العلاقة نحو الجارة في الجنوب فقد رأينا حرص ملوك الأسرة الثانية عشرة على أن يمدوا سلطتهم على كل البلاد الواقعة شمالي الشلال الثاني ولكن العوامل التي دفعت المصري إلى مد سلطته على كل المناطق التي تقع بين وادي حلفا والشلال الثاني كانت تنحصر في المحافظة على حدوده لا حب الاستعمار والتوسع.

ولقد دلت الأبحاث الكثيرة التي قام بها علماء الآثار عن تاريخ الشعوب التي سكنت تلك المناطق التي استولى عليها المصريون في عصر الأسرة الثانية عشرة على أمور شتى يحسن بنا أن نجملها لكم فيما يأتي:

في العصر الذي اصطلحنا على تسميته عصر الاضمحلال الأول وهو الذي أتى بين عصر الدولة القديمة والوسطى حدثت انقلابات عدة سببت مهاجرة القبائل التي سكنت بلاد النوبة الجنوبية هذه الانقلابات والاضطرابات سببها بعض القبائل القوية الفتية التي تحركت من مواطنها طلبا للمقامرة والغزو. هذه القبائل في غاراتها وغزواتها دفعت أمامها قبائل أخرى واضطرتها إلى التوغل شمالا في مناطق عدة ووصلت حتى الشلال الأول ودخلت أرض مصر ونستدل على ذلك مما تركوه من آثار نتتبعها حتى مدينة الكاب. وهذه الأبحاث الأثرية والأنتروبولوجية دلتنا على أن المنطقة من الكاب حتى الشلال الثاني سكنتها قبائل عدة كلها تمت إلى جنسية

واحدة وهذه الجنسية لم تكن من النجروتين، بل كانت حامية. سكنوا أكواخا مستديرة مقامة سقوفها على جذوع من الأشجار ثم كانوا يدفنون موتاهم في قبور مستديرة يحيط بكل مقبرة سور قصير أما حضارتهم فكانت تشبه حضارة مصر في فجر التاريخ وخصوصا في نوع الأواني الفخارية التي استعملوها وهنا (كما ذكرت في محاضراتي عن عصر فجر التاريخ) يظهر أن قبيلة من قبائل ذلك العصر هاجرت من أوطانها وتوغلت نحو الجنوب وأسست هناك حضارة مصرية انتشرت في تجاه الجنوب ولم تتقدم بينما في مصر كان التقدم المستمر من نصيبها على نحو ما درسنا. ولكن هل كانت هذه القبائل (التي انتشرت في نوبيا الشمالية وهي تلك المنطقة الجافة التي لا تسمح لكثير من الناس أن يسكنوها) تكون من نفسها خطرا يهدد سلامة مصر؟ لم يكن الخطر على حدود مصر آتيا من تلك المنطقة بل من منطقة "الدنجلة" حيث ظهرت في أوائل عصر الدولة المتوسطة أمة قوية عاصمتها كانت تقع جنوبي الشلال الثالث عند الكرمة وهي الأمة التي نعرفها باسم الكوشيين ولقد ظهرت لأول مرة في التاريخ في هذا العصر.

ونحن لا ندري شيئاً عن منازل هؤلاء القوم وكيف كانت ولكن الحفائر التي قام بها بعض العلماء في عام ١٩١٣ إلى عام ١٩١٥ في مدينة الكرمة أظهرت لنا جبانة الملوك وعرفنا منها أن الملوك كانوا يدفنون أنفسهم في مقابر ضخمة مستديرة محور كل منها يبلغ ٩٠ مترا. وعرفنا أيضا أنهم كانوا يضحون بكثير من الخدم والخادمات في يوم الدفن ويدفنونهم مع سيدهم.

وعلى ذلك وجد ملوك مصر الخطر كله في هذه المنطقة الجنوبية (الدنجلة) وليس في المناطق الأخرى الشمالية في بلاد النوبة. وهذا هو السبب الذي دفع ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى بناء القلاع والحصون في سمنه وقمة لمنع توغل هؤلاء القوم وهذا هو السبب أيضاً الذي حدا سنوسرت الثالث إلى أن يقيم تمثالا ضخما عند الحدود الجنوبية الجديدة لمصر عند سمنه وحرم على أهل هذه المنطقة أن يمروا نحو الشمال بقلاع سمنة اللهم إلا إذا كان ذلك للتجارة أو كان الشخص مبعوثا في مهمة رسمية إلى ارض مصر.

لقد استنفدت الحروب التي قام بها ملوك الأسرة الثانية عشرة في السودان كل وقتهم وشغلتهم كثيرا عن الأمم الأخرى المجاورة لمصر. ومما لا شك فيه أن الاضطرابات التي حدثت في مصر في عصر الاضمحلال وضعت حكامها جعل الأمم الشمالية المجاورة لمصر تحاول شن الغارة عليها ولكن عندما ظهر ملوك الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة وتمكنوا من استرجاع نفوذهم وقبضوا بيد من حديد على السلطة في مصر أثر ذلك في تلك الشعوب وأوقفهم عند حدهم.

ونحن نعرف أن أمنمحعت الأول اشترك مع القبائل التي سكنت ليبيا في حرب وأن ابنه سنوسرت الأول حاربهم أيضا مرة واحدة ويظهر أن هذه القبائل خضعت بعد ذلك ولم تحاول أن تعيد الكرة لغزو مصر واستتب الحال على حدود مصر الغربية طوال عصر الأسرة الثانية عشرة.

ومثل هذا كان أيضاً على حدودها الشرقية التي يسكنها البدو،

هؤلاء الذين جربوا حظهم مرة مع ملوك الدولة الوسطى وعرفوا قوتهم وأحسن ما قيل فيهم هو الوصف الآتي:

شعب العامو الخسيس الذي يسكن أرضا لا يمكن زراعتها تملؤها الأشجار وطرقها وعرة تخترق الجبال. وهذا الشعب لا يسكن موطناً واحدا بل يرحل من مكان إلى آخر وهو دائماً ينفذ حكم الملك حورث لا يعرف إلا الحرب وهو لا ينتصر في حروبه وفي نفس الوقت لا يمكن الانتصار عليه وهو إذا حارب لا يعلن قيام حربه".

ومثل هذا الشعب الذي لا يمل الحرب ولكنه لا ينتصر فيها كان من الصعب التغلب عليه وهزيمته بل كان من الواجب مطاردته كلما قرب من أرض مصر ولذلك سمعنا في قصة ستوحي عن حرس الحدود وعن القلاع التي بنيت على هذه الحدود ولكن في نفس الوقت تحدثنا بعض النصوص من عصر الدولة المتوسطة عن علاقات تجارية بين مصر وفلسطين وعن حضور بعثات تجارية إلى مصر كما ذكرت لكم في عصر الملك سنوسرت الثاني ولم تلتحم مع قبائل البدو إلا في عصر الملك سنوسرت الثالث إذ طاردهم في بلادهم وهزمهم ورجع منتصرا.

ثم إن علاقة مصر مع سكان جزر البحر الأبيض المتوسط كانت حسنة والتجارة كانت قائمة نستدل على ذلك من الأواني الأجنبية التي عثرنا عليها في الكاهون وفي أبيدوس من صناعة كريتة وغيرها من الجزر.

إذن فعلاقة مصر مع الأمم المجاورة كانت علاقة قائمة على الود لمن أراد السلام وعلى الحرب لمن أراد الحرب ولم تفكر مصر في مد سلطتها

لغرض الاستعمار إلا في الجنوب وكما ذكرت لم يكن ذلك الاستعمار استعمارا بمعنى الكلمة بل سببه أن ملوك مصر أرادوا إيجاد أرض غير مصرية تقوم عليها المعارك (كما حدث في الحرب العظمى في بلجيكا).

كلمة عامة عن تاريخ عصر الاضمحلال الثاني

لقد كان الملك أمنمحعت الثالث آخر ملك من ملوك الأسرة الثانية عشرة الذي ساهم في رقعة مصر وترك في التاريخ المصري آثارا خالدة. ثم خلفه على عرش مصر ابنه أمنمحعت الرابع ثم من بعده أخته سبكنفرو رع وهنا انتهت الأسرة الثانية عشرة وبانتهائها انتهى عصر الدولة الوسطى الذهبي.

ويدخل التاريخ المصري بعد هذا في عصر مظلم كله اضطرابات وانحلال يشبه من نواح عدة عصر الاضمحلال الأول الذي حل بمصر بعد انتهاء الدولة القديمة.

والآثار التي وصلت إلينا من هذا العصر قليلة لا تعاوننا البتة على فهم ذلك العصر أو تتبع عصوره وأكثر من هذا تتضارب أحاديث المؤرخين القدماء ونخص بالذكر منهم مانيتون وقبل أن نبدأ بدراسة أسر هذا العصر (وأقصد بذلك الأسرة الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة ثم السابعة عشرة) أود أن ألقي معكم نظرة سريعة على ما خلفته لنا مصادر التاريخ من أحاديث عن هذا العصر.

ولنبدأ بمانيتون: يقول مانيتون أن الأسرة الثالثة عشرة كانت من طيبة وعد من ملوكها ٦٠ ملكا حكموا مصر ٤٥٣ سنة. ثم أتت الأسرة الرابعة

عشرة وكانت هذه الأسرة من الدلتا وعد من ملوكها ٧٦ ملكا حكموا مصر ١٨٤ عاما ثم غزا مصر شعب الهكسوس أو كما يسميهم ملوك الرعاة الذين أسسوا في مصر أسرتين. الخامسة عشرة عد من ملوكهم ٦ ملوك ثم السادسة عشرة وذكر لهم ٣٢ ملكا ثم قال أنه بعد هذه الأسرة أتت الأسرة السابعة عشرة وهي في الحقيقة أسرتان إذ أن مصر في ذلك الوقت كانت منقسمة إلى قسمين الدلتا حيث الهكسوس وذكر لهم ٤٣ ملكاً ثم الوجه القبلي حيث أقيمت أسرة مصرية بحتة ناوأت الهكسوس وذكر لهم ٤٣ ملكا. وعلى ذلك تكون الفترة في التاريخ المصري (حسب مانيتون) التي كانت بين الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثامنة عشرة هي حوالي ١٥٧٠ سنة. وهنا يجب علينا أن نقف أمام هذه المبالغة الشنيعة في التاريخ. لأننا نعرف أن هذه الفترة لا تتعدى البتة ٢١٠ سنة أي أنها تأتي بين ١٧٨٥ و١٥٧٥ وهي الفترة بين نهاية حكم الأسرة الثانية عشرة وابتداء حكم الأسرة الثامنة عشرة وقد استطعنا تحديد هذه الفترة بما ثبت من أن نجم الشعري اليمانية (وهو نجم عرفه المصريون كان يظهر سنويا وبه استطاعوا معرفة أن السنة ٣٦٥ يوما وإن لم يستطيعوا معرفة ربع اليوم الزائد وعلى هذا كان يلزم لهذا النجم ٣٦٥× ٤= ١٤٦٠ عاما ليظهر مرة ثانية في نفس الوقت ونفس المكان).

ظهر في ١٦ برمهات من السنة السابعة من حكم الملك سنوسرت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة وقد استطاع الفلكيون بحسابهم الخاص أن يؤرخوا هذا الحادث بحوالي عام ١٨٨١– ١٨٨٢ أو حوالي

١٨٧٨- ١٨٧٩ ق م، كما ثبت أيضاً أن هذا النجم ظهر في ٩ أبيب من السنة التاسعة من حكم الملك أمنوفيس الأول وقد أرخ الفلكيون أيضا هذا الحادث بحوالي عام ١٥٥٠ ق م.

ولما كنا نعرف تماما أسماء ملوك كل من الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة ومدة حكم كل منهم فقد استطعنا بفضل تحديد الفلكيين لكل من هذين الحادثين أن نعرف نهاية حكم الأسرة الثانية عشرة، وابتدأ حكم الأسرة الثامنة عشرة وبالتالي إلى معرفة هذه الفترة بينهما وبذلك اتضح لنا مقدار المبالغة عند مانيتون في تقدير هذه الفترة.

وأكثر من هذا أن الآثار التي عثرنا عليها من هذا العصر تدلنا على أن المدة لا يمكن أن تزيد عن قرنين، ثم أن الاختلاف بين حضارة الدولة الوسطى والدولة الحديثة اختلاف قرنين من الزمن وليس أكثر.

فلنترك الآن مانيتون ونبحث فيما ذكرته ورقة تورين البردية: لقد اتفقت هذه الورقة مع ما ذكره مانيتون في تقسيم الأسرات وفي عدد ملوك كل أسرة ففي الجزء الذي يتلو الجزء المخصص لملوك الأسرة الثانية عشرة نجد في ورقة تورين البردية خمسة صفوف نعتقد أن كل صف منها خصص لملوك إحدى الأسرات الخمسة التي يتكون منها عصر الاضمحلال الثاني.

ففي الصف الأول نقرأ ٦٠ اسما وفي هذه الحالة يتفق مانيتون مع ورقة تورين وتكون الأسرة الثالثة عشرة تحوي ٦٠ ملكا ومما يؤسف له حقا أن الورقة في هذا الجزء ممزقة كل التمزيق ولا يمكننا البتة تتبع أسماء ملوك الأسرة الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة ولكننا نلاحظ أن ما تبقى من الأسماء وما

ظهر في أسفل كل اسم من مدة الحكم –ولقد حفظت الورقة لنا مدة حكم ٣٢ من ملوك هذا العصر– لا يتعدى سنوات قليلة.

أما قائمة الملوك التي عثرنا عليها في سقارة وفي أبيدوس فلم تذكر لنا أي اسم من أسماء ملوك هذا العصر.

أما قائمة الكرنك فقد ذكرت لنا ٣٥ اسما من أسماء ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والسابعة عشرة بينما ملوك الأسر الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة لم يذكروا على هذه القائمة.

هذا هو ما ذكرته لنا مصادر التاريخ عن عصر الاضمحلال الثاني والآن فلنتابع دراسة كل أسرة معتمدين في ذلك على الآثار التي خلقتها لنا كل من هذه الأسرات الخمسة.

الأسرة الثالثة عشرة:-

أن الأسباب التي دعت إلى اضمحلال الدولة الوسطى تختلف عن تلك الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة القديمة.

لقد عرفنا أن حكام الأقاليم في عصر الأسرة السادسة انتزعوا السلطة انتزاعا من ملوك مصر واستقلوا تدريجيا بالسلطة المحلية وأصبحوا يتصلون بالملك في عاصمته بخيوط وهمية لا تتعدى العلاقات الرسمية بين مليك البلاد وملوك آخرين كل منهم استقل بمقاطعة. هذا الخطر لم يظهر في الدولة الوسطى وخصوصا بعد أن تمكن الملك سنوسرت الثالث من القضاء على هذه الفئة قضاءاً تاماً.

ولكن الخطر أتى من ناحية أخرى وهي أن ملوك النصف الثاني من الأسرة الثانية عشرة اعتمدوا في حكمهم على الموظفين الذين أرادوا أن يجعلوا منهم منافسين لحكام المقاطعات فأعطوهم كل ما يمكن إعطاؤه الموظف من سلطة، وفعلا نجحت هذه السياسة وقضى هؤلاء الموظفون على ما كان من السلطة لحكام الأقاليم. ثم اعتمد الملوك في حكمهم على الجيوش القائمة وكان الملوك المصريون قبل هذا العهد لا يعرفون الجيش القائم بل كانوا كلما دعا الحال (كحدوث غارة على مصر أو إرسال بعثة إلى الخارج) جمعوا الناس ودربوهم بسرعة على الحرب وكونوا منهم فرقا لا تلبث أن تسرح إذا ما انتهوا من المهمة التي من أجلها جمعوا. ولأول مرة في تاريخ مصر بقيت فرق الجيش المصري في أيام السلم دون أن تسرح ولعل السبب الذي حدا بالملوك إلى اتخاذ هذه الطريقة هذا النزاع الدائم الذي وقع بين الملوك وحكام الأقاليم ثم اعتماد هؤلاء الحكام على فرقهم الخاصة وتفننهم في تدريبهم والعناية بهم فاضطر الملك أن يحارب هؤلاء الحكام بنفس سلاحهم.

فتكون في مصر في أواخر عصر الأسرة الثانية عشرة حزبان كبيران لهما خطرهما حزب الموظفين وحزب الجيش، وعندما أنجب أمنمحعت الثالث ابنه أمنمحعت الرابع وبعده أخته سبك نفر ورع وكان كلاهما ضعيفا لم يعرف كيف يسيطر على كل من الحزبين ولم يعرف كيف يمنع تصادم هاتين القوتين سقطت الدولة الوسطى.

ويظهر أن ملوك الأسرة الثالثة عشرة كانوا من هاتين الفئتين كل فئة تناضل بقدر استطاعتها أن يكون ملك مصر منها حتى إذا نجحت تصدت

لها الفئة الأخرى وناوأت الملك حتى تسقطه وتعين ملكا آخر من بينها وهذا هو السبب في تعدد ملوك الأسرة الثالثة عشرة وفي اختلاف أسمائهم وفي عدم ظهور أي نسبة بينهم وبين أي بيت من البيوت الملكية ومن الظريف حقاً أن بعض هؤلاء الملوك زاد على ألقابه الملكية المعروفة لقب رئيس الجيش.

وإني أرى أنه من العبث حقاً أن أسرد عليكم كل أسماء ملوك هذه الأسرة فهم كثيرون لم يخلدوا في تاريخ مصر أي أثر ولم يساهموا في رقي مصر بل بالعكس أسدلوا على هذا العصر ستارا كثيفا من الظلام وسهلوا للأعداء أن يجدوا في مصر لقمة سائغة، فدخل مصر الهكسوس وأقاموا دولة عاشت في مصر أكثر من قرن.

دولة الهكسوس في مصر

بعد أن انحلت الأسرة الثالثة عشرة واختفت أحزابها المتنازعة انقسمت مصر إلى ثلاثة أقسام. قسم حكمه ملوك اصطلحنا على تسميتهم ملوك الأسرة الرابعة عشرة وهذا القسم واقع غربي الدلتا مع جزء من وسطها وذكرت لهم ورقة تورين ما يقرب من ٢١ اسما (لا يمكننا قراءة هذه الأسماء بشكل واضح لأنه كما قلت تهشمت الورقة في هذا الجزء) وذكر لهم مانيتون ٧٦ اسما. ولكن الغريب أننا لم نعثر على أثر لملك من هؤلاء الملوك قطعيا. وهذا يدلنا على أنهم لم يتعدوا حدودهم في الدلتا الغربية ولم يصلوا بأي شكل كان إلى مصر العليا.

وبينما كانت هذه الأسرة تحكم في الغرب كان الهكسوس قد دخلوا مصر من الشرق وأقاموا دولتهم التي امتدت على كل الدلتا إلا جزءها الغربي ثم مصر الوسطى حتى أسيوط. أما مصر العليا فكانت تحت إمرة حكم مدينة طيبة.

أما دولة الهكسوس فهي التي تقع في الفترة التي اصطلحنا على تسميتها الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة ثم السابعة عشرة في الشمال فقط.

والآن فلنستعرض ما تحدثت به المراجع التاريخية عن شعب الهكسوس.

أما مانيتون فقد تحدث عن غزوة الهكسوس لمصر كما يأتي:

"تحت حكم الملك "توتيمايوس" غضبت الآلهة على مصر. وكان من جراء ذلك أن هاجم مصر شعب لا ندري موطنه أتى إليها من الشرق. ودخلوا مصر دون حروب واستوطنوها دون سفك دماء. وقد أسروا زعماءها وأوقدوا النار في مدنها وهدموا معابد آلهتها وتعسفوا مع أهلها فكانوا يضربون البعض بدون مبرر أو يسبون نساء وأطفال البعض الآخر ثم أقاموا أحدهم واسمه سلاتيس ملكا على مصر وكان هذا الملك يأتي من حين لآخر إلى منفيس حيث يقرر الضرائب الجديدة ويجمع الجزية من الأرضين ويقيم الجند في المناطق المحصنة. وكانت جل عنايته متجهة صوب المناطق الشرقية التي حصنها وقوى حاميتها ثم بنى عاصمته "أواريس" وحصنها تحصيناً جيداً وبلغت حاميتها ٢٤٠,٠٠٠ جنديا كان يتفقدهم ويكثر من عطاياه إليهم ويستعرضهم إذ أنهم كانوا عدته التي يعتمد عليها لسحق العدو. ومات هذا الملك بعد أن حكم ٩ سنة. أما الشعب بأجمعه فكان يسمى بالهكسوس أي ملوك الرعاة".

والمدقق يرى أن ما كتبه مانيتون كان مصدره ما تبقى عن الشعب المصري من ذكريات متداولة عن الهكسوس. هذه الذكريات نشأت في العصر الذي أتى بعد الأسرة الثامنة عشرة التي يعد من بين أعمالها الحسنة طرد الهكسوس من مصر. وفي بردية من عصر الأسرة التاسعة عشرة نقرأ عن هذا الشعب ما يأتي:

لقد حدث أن وقعت مصر فريسة لعدو خسيس ولم يكن فيها ملك يحكمها وفي ذلك الوقت كان الأمير سكنن رع يحكم مقاطعات الجنوب بينما احتمى العدو في عاصمته في الشمال ومكث سلكهم في مدينة أواريس حيث تجبى له الضرائب وتأتي إليه من كل مناطق الشمال والجنوب".

وهناك نص نعده النص الوحيد الذي يحدثنا عن الهكسوس دون أن يعتمد على الذكريات المتداولة بين الشعب. هذا النص هو ما كتبته الملكة حاتشبسوت في معبدها المسمى "إسطبل عنتر" الواقع بالقرب من بني حسن "دخل شعب العامو من الشرق ومكثوا في أرض الشمال وجعل ملكهم من أواريس عاصمة له وقد هدموا كل ما كان قد شيدته يد المصريين حكموا مصر دون أن يعرفوا الإله رع ولم يحكم مصر أحد بإذن من الآلهة حتى عصري هذا".

من هذا النص يمكننا أن نحكم على الحالة في مصر: فمما لا نزاع فيه أن الهكسوس مكثوا في الشمال فقط وأن الجنوب كان يحكمه بعض الأمراء المصريين الذين لم يكن لهم سلطة واسعة ولكنهم كانوا على كل حال متمتعين بسلطتهم الضئيلة في حكم مقاطعاتهم الصغيرة.

موطن الهكسوس:

لقد لقب الهكسوس بألقاب عدة في النصوص المصرية:

(١) حكام البلاد الأجنبية (حكا خازوت) (٢) الأسيويون. العاميون (عامو) (٣) (منتيو سانت) وهم القبائل البدو التي كانت تجوب الصحراء

الشرقية وشبه جزيرة سينا وهم ساسيون أيضا (٤) (شاسو) وهم القبائل التي كانت تسكن الصحراء في جنوب فلسطين.

كل هذه الأسماء تدل دلالة واضحة على أن الهكسوس من أصل سامي أو قل إنهم كانوا البدو الذين سكنوا فلسطين بل أكثر من هذا كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى قوم العبرانيين.

ومن الأشياء التي تساعدنا على هذا التعليل ما يأتي:

أولا: إن أغلب الأسماء التي حلفها لنا عصر هذا الحكم كانت سامية: مثل يعقوب، عبد، نحمن.

ثانياً: لقد جلب الهكسوس معهم إلى مصر العربة والحصان وأسماء الحصان هي بالمصرية "سست": مشتقة من الكلمة العبرية أو الكنعانية "سوس": سيسي ثم اسم العربة: مركبة: مركبوت (كنعانية) ثم اسم العربة: عجلت: عجلة.

ثالثا: منذ دخول الهكسوس إلى مصر ظهرت فيها بعض الآلهة التي كانت في الأصل في سوريا وفلسطين مثل الآلهة "عنات" والإله "بعل"، والآلهة "اشطارته".

رابعا: إن علاقة ملوك الهكسوس بفلسطين كانت وثيقة: يدلنا على ذلك الحفريات التي عملت حديثاً في "جارا" فقد وجدت بعض الجعارين والآثار لملوك الهكسوس الذين حكموا مصر.

خامسا: في هذه الجبانة التي حفرت في فلسطين وجدنا ظاهرة غريبة:

وهي أن في بعض المناطق وجدت جثث الحمير في مستوى أعلى من جثث الإنسان وكذلك أعلى من جثث الحصان؛ وهذا يدلنا على أن الحمار لم يقدم كقربان بل دفن في هذه المنطقة لأنه عبد. ونحن نعرف أن الحمار كان من الحيوانات المقدسة عند الهكسوس يدلنا على هذا:

١) اسم أحد الملوك: (عاقن) أي الحمار القوي.

٢) اسم الإله زيث مع اسم الحمار (عا).

أين كانت مدينة أواريس؟

لقد اختلف علماء الآثار في موقع عاصمة الهكسوس المسماة أواريس ولكن الأبحاث الحديثة دلت على أن الرعامسة بنوا عاصمة ملكهم التي سموها برامسيس على أنقاض مدينة أواريس والسبب في ذلك أن الآلهة التي عبدت في أواريس في عصر الهكسوس هي بعينها الآلهة التي عبدت في برامسيس في عصر الرعامسة وعلى رأس هذه الآلهة الإله (سوتخ) الذي جلبه معهم الهكسوس وأدمجوه في الإله المصري زيث.

ثم حفائر الأستاذ مونتيه الحديثة في صان الحجر أثبتت هذه النظرية وقررت أن أواريس هي برامسيس وهي صان الحجر وهي تانيس اليونانية.

كم من السنين مكثت دولة الهكسوس في مصر:

لقد اختلفت الآراء القديمة والحديثة في تحديد عصر حكم الهكسوس في مصر. ولقد حدثتكم عن نظرية مانيتون هذه النظرية التي تنتج أن الهكسوس في الأسرة الخامسة عشرة حكموا حوالي **٥٩** عاما (وعدد

ملوكها ستة)، وفي الأسرة السادسة عشرة حكموا ٥١٨ سنة (وكانوا ٣٢ ملكا)، وفي الأسرة السابعة عشرة حكموا ١٥١ سنة (وكانوا ٤٣ ملكا) ومعنى هذا أن حكم الهكسوس ظل في مصر ٢٩٢ سنة. وكما حدثتكم من قبل عندما بحثنا عصر الاضمحلال الثاني أن تأريخ مانيتون مبالغ فيه مبالغة كبيرة وأن عصر الاضمحلال من أول الأسرة الثالثة عشرة حتى أول الأسرة الثامنة عشرة لا يتعدى البتة ٢١٠ سنة.

متى دخل الهكسوس مصر؟

لقد اتفقنا في محضراتنا السابقة على أن الأسرة الثامنة عشرة ابتدأت حوالي عام ١٥٨٠ ق.م والآن فنحاول أن نصل إلى العصر الذي دخل فيه الهكسوس أرض مصر:

لقد عرفنا أن ملوك الهكسوس لم يتعبدوا إلى إله مصري سوى الإله زيث وعرفنا أيضاً أن الإله زيث الذي عبد في أواريس هو بعينه الإله زيث الذي عبد في عصر الرعامسة في عاصمتهم بررمسيس. وإن بررمسيس هي تانيس.

والآن نتنقل إلى نقطة مهمة جدا.

في تانيس عثرنا على لوحة حجرية كبيرة من عصر رمسيس الثاني أي كتبت تحت حكم هذا الملك. هذه اللوحة التاريخية تتحدث عن ملك اسمه "نوبتي" وأرخت اليوم الذي كتبت فيه: ٤ مسرى من السنة الأربعمائة من حكم نوبتي. ثم ذكرت الاسم الثاني لهذا الملك "زيث القوي" ونحن نعرف أن نوبتي هذا هو اسم الإله زيث الذي يشتق في مدينة العبادة الأولى حيث

أقيمت له الطقوس. إذن هذه اللوحة تتحدث عن عصر مقداره ٤٠٠ سنة من تاريخ إله هو زيث. أي أن هذه اللوحة كتبت لذكرى مرور ٤٠٠ سنة على تأسيس عبادة الإله زيث في الدلتا في مدينة بررمسيس. وبما أن هذه اللوحة كتبت في عصر رمسيس الثاني الذي حكم حوالي سنة ١٢٨٠ إذن عبادة زيث أدخلت في الدلتا حوالي ١٦٨٠ ق.م.

والآن هذه العبادة أدخلت في أول عصر الهكسوس إذن يكون الهكسوس قد استتبوا في أرض الدلتا حوالي عام ١٦٨٠ ق.م.

ويؤيد هذه النظرية أن الملك "نحزي" (وهو الملك الثالث قبل أخر ملوك الأسرة الثالثة عشرة) كان من عصر الهكسوس، ونحن نعرف أنه حكم مصر حوالي ١٦٦٠ ق.م إذن الهكسوس دخلوا مصر في عصر يسبق هذا العصر أي أنهم دخلوها في عصر الملك آي حوالي عام ١٧١٠ق م.

وصفوة القول أن الهكسوس دخلوا مصر حوالي عام ١٧١٠ ق.م وأسسوا عاصمتهم أواريس حيث أقاموا معبداً للإله زيث ١٦٨٠ ق.م ثم طردوا نهائياً من مصر عام ١٥٨٠ ق.م فمكثوا في مصر ما يقرب من قرن ونصف.

ملوك الهكسوس وما خلفوه من آثار

إن الأسماء التي وردت على آثار خلقها ملوك الهكسوس في مصر كثيرة يبلغ عددها (عدد الأسماء) ٢٣ اسما: نقسمها إلى خمسة مجموعات:

المجموعة الأولى تحوي أسماء ثلاثة ملوك:

١) ملك الشمال والجنوب. عا أوسر رع ايبي (أبو فيس)

٢) الإله الطيب سيد الأرضين نب خو بش رع " ".

٣) " " عاقنن رع " ".

والمجموعة الثانية تحوي أسماء ثلاثة ملوك يلقبون أنفسهم بلقب حكا خاسون (أي هكسوس) أي حاكم البلاد الأجنبية.

(١) سمكن (٢) عانت هر (٣) خيان.

المجموعة الثالثة تحوي أسماء ثمانية ملوك استعملوا لقب "الإله الطيب"

المجموعة الرابعة تحوي أسماء ستة ملوك استعملوا لقب "ابن الإله رع".

أما المجموعة الخامسة فتحوي ثلاثة أسماء وردت على حجر تذكاري أقامه كبير كهنة منف عام ٧٠٠ ق.م لكي يعد عليه أجداده من كبار الكهنة ومن كانوا تحت حكمهم من الملوك وهنا ذكر هذه الأسماء الثلاثة:

(١) عاكن (الحمار القوي).

(٢) شارك (٣) ايبي (أبو فيس).

والأسماء التي ذكرها لنا مانيتون يتعسر علينا أن نقارن بينها وبين ما ورد على الآثار المصرية للاختلاف الكبير بينها اللهم إلا في حالتين:

١) أبو فيس هو ايبي. ٢) هو خيان.

ومما يؤسف له أن الأسماء التي وردت على الآثار المصرية وردت

متفرقة بحيث يصعب علينا ترتيبها ترتيبا تاريخيا، وكيف يمكننا ذلك وأهم هذه الآثار ليست إلا جعارين.

ولقد حاول أحد الأساتذة المشهورين (بتري) أن يرتب هذه الجعارين بحسب مظهرها ترتيبا تاريخيا ولكنه فشل في ذلك كل الفشل.

وهم الملوك الذين تركوا آثارا من عصر حكم الهكسوس هو الملك خيان الذي لم يخلف لنا آثارا عثرنا عليها في مصر فحسب بل في كل البلاد المجاورة مثل فلسطين وسوريا والعراق وجزيرة كريتا.

ولقد أراد البعض أن يتخذ من هذا الانتشار دليلا على دولة أسسها الهكسوس تمتد بين بلاد ما بين النهرين في الشمال الشرقي إلى جزيرة كريتا في الغرب وتضم سوريا وفلسطين ومصر. ولكن ظهور هذه الآثار في سوريا وفلسطين لا يدل إلا على العلاقة الجنسية بين الهكسوس وموطنهم الأول. أما ظهورها فيما بين النهرين فإنما يدل على أنها وصلت إلى هناك عن طريق التجارة القديمة. وخصوصا إذا علمنا أن اسم هذا الملك حفر على تمثال لأسد رابض يغلب علي الظن أنه وصل إلى ما بين النهرين عن طريق أحد تجار العاديات في العصور الحديثة واشتراه من هناك المتحف البريطاني.

ولقد عثر العالم **Weans** تحت أنقاض قصر كنوسوس (في جزيرة كريتا) الذي تهدم بفعل الزلازل على غطاء إناء مرمري منقوش عليه اسم الملك خيان وهذا لا يدل على وجود نفوذ لملك الهكسوس خيان في جزيرة كريتا بل يدل فقط على أن العلاقات التجارية القديمة كانت موجودة وإن هذا الأثر وصل إلى كريتا عن هذا الطريق. وأظن أنه ليس هناك من يشك

في وجود العلاقات التجارية بين البلدين منذ أقدم العصور.

وإذا دققنا النظر قليلا وجدنا أن كل الآثار التي خلقها لنا الهكسوس في مصر وغير مصر هي مصرية الصنع. مصرية الطابع مع أنه لو صحت النظرية القائلة بوجود دولة مترامية الأطراف للهكسوس لتوقعنا أن نرى في مصر فناً آخر تأثر بالفن الأشوري مثلا أو البابلوني. أو قل لرأينا الفن المصري قد أثر في أحد هذين الفنين. ومن ناحية أخرى لتوقعنا أن نعثر على آثار أعظم قيمة وأكبر حجما لملوك الهكسوس مما وجدناه. ولكن كيف يحق لنا أن نؤمن بنظرية الدولة الكبيرة إذا عرفنا أن أكثر ما خلفه الهكسوس لنا لا يتعدى جعارين وقطع صغيرة من أواني وما شابه ذلك.

بل إن هذه الآثار بالذات تدلنا دلالة واضحة على ضعف ملوك الهكسوس ضعفا أنساهم موطنهم الأول وعاداتهم الأولى فاندمجوا في الحضارة المصرية. واتخذوا كل ما كان في مصر مثالا حذو حذوه: فلقبوا أنفسهم بألقاب مصرية، وعبدوا إلهاً مصرياً وأقاموا له معبدا على الطريقة المصرية. ثم إذا كان هذا الظن على شيء من الحق فلماذا سارع ملوك الهكسوس بل أولهم إلى الحدود الشرقية وأقام فيها قلاعا ضخمة وحصنها تحصينا كاملا كما يحدثنا مانيتون؟ أكان يحصنها ضد نفسه وضد دولته المترامية الأطراف، أم كان يحصنها ضد غارات يشنها على مصر شعوب أخرى غير شعب الهكسوس الذي استمرا البقاء في مصر وأعجبه الحال فيها.

ماذا استفادت مصر من حكم الهكسوس؟

(١) دخل شعب الهكسوس أرض مصر عنوة وبقي فيها عنوة هدم المعابد وأهانا لمصري واستعبده. لقد أتاحت الظروف لهذا الشعب أن يدخل مصر تلك الظروف القاسية التي تحل بمصر دائماً عندما يكتمل لها عصر ذهبي فما تكاد تهنأ بهذا العصر وتسعى نحو التقدم والحضارة بخطى واسعة حتى يداهمها الانشقاق والاضطرابات فتهوى في الهاوية. وفي هذه المرة كان التعسف شديداً وذاق المصري الأمرين من الغزاة، فما لبث أن حطم قيود التعسف وثار في وجوه الطغاة ثورة مباركة أوقدت الحمية في صدور المصريين وجعلتهم يستبقون الموت ويطلبونه بحرارة في سبيل حريتهم.

فقاموا قومة واحدة وطردوا الهكسوس من مصر.

ولم يتصف الشعب المصري بالبسالة والشجاعة يوما اتصافه بهما في ذلك العصر. ولم يتعلق الشعب المصري بالجندية ويفاخر بانضمامه تحت لوائها بمثل ما فاخر مصري ذلك العصر.

إن حكم الهكسوس في مصر هو العالم القوي الذي جعل من الشعب المصري لأول مرة في تاريخه شعباً محاربا مستبسلا طلب الحرية فنالها ثم عرف طعم الحرب وتذوق معنى الانتصار فخرج من مصر يطلب الحرب والغزو فما لبثت كل البلاد المجاورة أن خضعت له وعنت لسلطانه فنشأت الإمبراطورية المصرية الأولى، كونها بطل مصر الفذ تحتمس الثالث ولولا تعسف الهكسوس ونشرهم لواء الظلم في مصر، لما تمكن تحتمس أن يجد في

الشعب المصري فرقة واحدة تساعده على تحقيق مطامعه.

(٢) أما الشيء الثاني الذي استفادته مصر من حكم الهكسوس فهو تعرفهم على العربة والحصان. فالمصري لم ير الحصان أو العربة قبل ذلك:

دخل الهكسوس أرض مصر وجلبوا معهم هذا الحيوان الغريب وهذه المركبة العجيبة واستعانوا بهما على حكم المصريين وعلى تثبيت ملكهم فيها فما لبث المصري أن تعلم هذه الحرفة الجديدة وأجادها واستغلها فنجح في ذلك كل النجاح.

ثورة المصريين ضد الهكسوس وطردهم من مصر

لقد تحدثنا فيما سبق عن وجود أمارة مصرية في الجنوب حكمت هناك تارة مستقلة وتارة تحت نفوذ ملوك الهكسوس.

ولقد عثرنا على لوحتين أثريتين تحملان أسماء شخصين كلاهما مسمى: تاعا وكلاهما يحمل اسم العرش "سكننرع". وبما أنه يستحيل أن نجد ملكين باسم واحد للعرش اعتقدنا أن الثاني وهو أخو الأول كتب باسم العرش سكنن رع خطأ بدلا من "سانخت إن رع". وهذا الأخير عثرنا على جثته المحنطة ولا زالت أثار جرح عميق في الرأس ظاهرة ونستدل بذلك على أنه قتل بسبب هذا الجرح وأن هذا الملك لقي حتفه في كفاحه ضد الهكسوس.

ويحملنا على اعتقادنا هذا أننا عثرنا على جزء من بردية كتبت في عصر الأسرة التاسعة عشرة وهذه البردية تحدثنا عن ابتداء الحرب بين أمراء طيبة وملوك الهكسوس. أو قل عن استفزاز الهكسوس لأمراء طيبة.

وحدث هذا في عصر الملك سكنن رع أي أخو المقتول الذي عثرنا على جثته ذات الجرح العميق في الرأس. والنص الذي كتب على هذه البردية يحدثنا عن حلول عيد من أعياد المصريين المقدسة فجمع الملك أبو فيس (أحد ملوك الهكسوس) رجال دولته وتداول معهم في أشياء نجهلها لأن النص هنا مهشم. ثم يستمر النص مرة ثانية وهاك ترجمة ما جاء به:

ومضى زمن طويل بعد ذلك فأرسل الملك أبو فيس إلى الأمير سكنن رع بالمدينة الجنوبية طيبة رسالة. فلما وصل رسل الملك أبو فيس بهذه الرسالة على المدينة الجنوبية (طيبة أحضروا إلى أمير تلك المدينة فقال لأحدهم: لماذا حضرت إلى المدينة الجنوبية ولأي سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة؟ فأجاب الرسول: إن الملك أبو فيس أرسلنا إليك ليخبركم أن فرس البحر القاطن في مياه مدينة طيبة يمنع جلالته من النوم ليلا ونهاراً. فصياحه يرن في أذن جلالته باستمرار. فتكدر أمير المدينة الجنوبية وكظم غيظه ولم يجب على ذلك.

ثم تهشم النص بعد ذلك ولكن يستدل من سياق الحديث أن سكفن رع هذا أرسل هدايا جزيلة إلى أبو فيس ووعده بعمل ما يرضيه نحو تلك الحيوانات ثم عاد الرسول إلى سيده وعلى أثر ذلك استدعى سكننرع قواده ورؤساء مملكته وأخبرهم برسالة أبو فيس. فخيم السكون عليهم جميعا ولم يلفظوا بكلمة. (ثم انقطع النص وانتهى بذلك).

هكذا بدأ النزاع بين ملوك الهكسوس وأمراء طيبة. لقد أراد أمراء طيبة أن يبدؤا بمناوأة الهكسوس وطردهم من مصر فسمع بذلك ملك

الهكسوس فأراد أن يستفزهم ويستدرجهم إلى الحرب. فاتهمهم بهذه التهمة الغريبة التي تشبه تهمة الذئب للحمل.

ويمكننا أن نعتقد بأن الحرب بدأت في عصر سكنن رع ثم استمرت في عصر أخيه سانحت إن رع الذي عثرنا على حثته. ثم أيضا عصر ابن الأخير المسمى كاموزة.

ونعرف أن الأخير كان قد أثار الحرب بعد هدنة وأنه حاول جهده إضرام نار الثورة بين مواطنيه ورجال بلاطه الذين رغبوا في الحرب قانعين بما هم فيه ووصلتنا لوحة خشبية اسمها "لوحة كارتارفون" مؤرخة في السنة الثالثة من حكم الملك كاموزة.

وفيها يجري الحديث بين الملك كاموزة ورجال حاشيته المجتمعين عنده للتداول في أمر الثورة ضد الهكسوس:

قال الملك: أريد أن أعرف لماذا اشتهرت بالقوة. هذه القوة يجب أن تستغل، هناك في أواريس يجلس ملك، وهناك في كوش يحكم ملك آخر بينما أنا أجلس هنا في طيبة بين رجل أسيوي وآخر زنجي. وكل منهما يقتسم مصر معي. انظروا تجدوا الأسيويين قد حكموا مصر حتى الأشمونين وقد هدموا كل الأبنية وخربوها، ولكني سأهاجم ملكهم وسوف أبقر بطنه بيدي. كل أملي أن أخلص مصر من تعسف الأسيوي وأن أطرده شر طرده.

فرد رجال البلاط على الملك قائلين: إذا كان الأسيويون قد توغلوا في مصر حتى الأسمونين وأسيوط وإذا كانوا يلفقون التهم ضدنا بيسحبوا

لسانهم علينا إلا أننا نعيش بسلام في منطقتنا. والفنتين محصنة تحصينا قويا ونحكم مصر حتى أسيوط. ونحن نملك أحسن مناطق مصر. ثم قطعاننا ترعى عشبها بأمان وما زلنا نستورد الحبوب لماشيتنا من الدلتا. دعهم يحكمون الشمال بينما نحن نحكم مصر الحقيقية.

وهنا غضب الملك عليهم وقال:

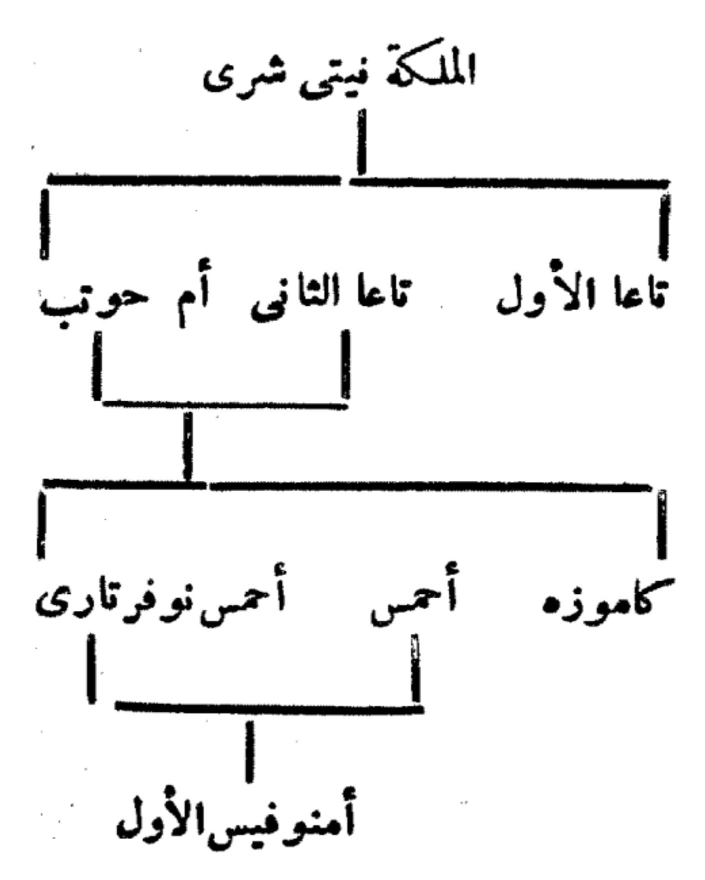
يجب أن يلهج المصريون باسمي ويجب أن يتحدث كل منهم عني: "ها هو ذا مخلص مصر" ثم جمع الملك جيشا مكونا من رجاله البواسل وفرقته النوبية وسار هذا الجيش مطيعا بذلك أمر إلهه آمون الذي يطلب العدل. وتقدم نحو الشمال وهاجم حاكم وحاصر مدينته حتى سقطت ودخلها وهزمه".

وهنا تنتهي بكل أسف النصوص:

نحن لا ندري إلى أي حد وصل الملك كاموزة في معاركه ضد الهكسوس ولكن نعرف فقط أنه كان ملكا لم يستسلم لخنوع قواده ورجاله بل واصل الجهاد وأتم رسالة أبيه من قبله ولقد كان هذا الرجل آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة.

وخلفه من بعده أحمس الذي نجح تماما في طرد الهكسوس من مصر وطاردهم إلى فلسطين. ونظن أن أحمس هذا هو أخو كاموزة..

وقد تفرع نسبهم على هذه الصورة :



"الملك أحمس":

لقد عاش كاموزة مدة قصيرة وتبعه كما قلت أحمس (الذي يرجح أنه أخوه) (وكان ذلك حوالي عام ١٥٨٠ ق.م). ولقد تابع أحمس الحرب ضد الهكوس حتى الجلاء وخلص مصر من تعسفهم. ولكن لم يصلنا نصوص عن ابتداء حكم الملك أحمس. وكل ما نعرفه هو انتهاء هذه الحرب ونعرف ذلك من تاريخ حياة رجل شارك أحمس في كل معاركه ضد الهكسوس وخلد لنا هذا التاريخ على جدران مقبرته. وكان اسم هذا الضابط. أحمس ابن أبانا.

"أمضيت أيام شبابي في مدينة الكاب وكان أبي ضابطا في جيش الملك سكننرع ولما توفى والدي دخلت الجندية وأصبحت ضابط على سفينة من سفن جلالة الملك وكان ذلك أيام الملك أحمس. وكنت إذ ذاك شابا لم أتزوج بعد. فلما تزوجت وصارت لي أسرة نقلت إلى الأسطول الشمالي وذلك لشجاعتي وإقدامي" من هذا يتضح لنا أنه نقل من أسطور الكاب في الجنوب إلى الأسطول الذي استعمله الملك في محاربة الهكسوس في الشمال. وبعد ذلك نقل أحمس ابن أبانا من البحرية إلى الجيش البري حيث تولى قيادة فرقة الحرس الملكي إذ قال (وكتب اتبع الملك في سيره حينما أقلته عجلته وهذه هي أول مرة ظهرت الكلمة التي استعملها المصريون للعربة) ثم انتقل بعد ذلك أحمس الضابط إلى الحديث عن حصار أواريس عاصمة الهكسوس.

قائلا:- وعندما حاصر الملك أواريس أظهرت في العراك بسالة عظيمة.

ويظهر بعد ذلك أن هذه المدينة هو جمعت من الشاطئ أواقع على النيل بواسطة أسطول إذ أن أحمس الضابط عين مرة ثانية ضابطا لسفينة اسمها "ضوء منف".

وبعد الهجوم الرابع حدثنا أحمس أن المدينة سقطت. ويظهر أن حصار أواريس دام عدة سنوات وأن مدته طالت بسبب ثورة قام بها بعض الحكام المصريين تحت إمرة أمير من الكاب. هذه الثورة تحدث عنها أحمس هذا أيضا قائلا:-

أسرع الملك إلى الجنوب وحارب الثوار جنوب مدينة الكاب "ولكنه لم يذكر تماما من هم هؤلاء الثوار" وأسرت بيدي رجلا حيا أراد أن يقفز إلى البحر. فتبعته في الماء وقبضت عليه وعبرت به النيل فعلم بذلك الملك فأنعم علي جلالته بمكافأة ذهبية مضاعفة.

وعندما سقطت أواريس طارد أحمس الهكسوس حتى أخرجهم من الحدود المصرية ثم تبعهم إلى فلسطين فتحصنوا في مدينة شاروهين "شرحان وموقعها جنوبي يهوذا في جنوب فلسطين" وقال في ذلك أحمس الضابط:

ثم حاصر جلالة الملك شاروهين ثلاث سنوات واستولى عليها وقد أسرت وقتئذ امرأتين وأسيرا فكافأني جلالته بالذهب عن شجاعتي وملكني رقاب الأسيرتين.

ويعتبر هذا أول حصار طويل معروف من نوعه في التاريخ وبرهانا قويا على شدة مقاومة الهكسوس وفي نفس الوقت طول صبر أحمس وقوة إرادته وشدة بأسه حتى أنه واصل الحصار طول هذه المدة.

وهناك نص آخر كتبه ضابط آخر خدم الملك أحمس واسمه أيضا أحمس ابن نخيت. ذكر على جدران مقبرته أنه تبع الملك في حربه ضد الهكسوس في زاهي أي في سوريا "وزاهي هو الاسم المصري للمنطقة التي يسكنها الفينيقيون" ومعنى هذا أن أحمس الأول طارد الهكسوس حتى طردهم من كل المناطق التي سكنوها ومن المناطق التي يسكنها أقوام من جنسهم. وبذلك طهر مصر وفلسطين وسوريا منهم تماما وأصبح في مأمن من جانبهم.

وبعد أن انتهى الملك من حروبه في أسيا وجه همه إلى بلاد النوبة: فتمكن في مدة قصيرة أن يرجع كل المناطق التي حكمتها مصر في عصر الدولة الوسطى، وبذلك خضعت بلاد النوبة للمرة الثانية للحكم المصري وامتدت الحدود الجنوبية المصرية حتى الشلال الثاني وهناك كتب الملك على لوحة تاريخية:

"ورجع الملك أحمس من غزوته في الجنوب يفيض قلبه بقوة النصر العظيم إذ أنه سحق الأعداء في الشمال والجنوب".

والآن أصبحت مصر أمة متحدة يمتد سلطانها على بلاد النوبة حتى الشلال الثاني ودانت فلسطين للحكم المصري. وأصبح ملك مصر مهيب الجانب واسع السلطات.

الحالة الداخلية بعد طرد الهكسوس

كانت مهمة أحمس الأول في تنظيم الحكومة المصرية وإرادة البلاد الداخلية مختلفة تماما عن مهمة أمنمحعت الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشرة. فأمنمحعت تولى عرش مصر بينما كان حكام الأقاليم يتنازعون السلطة كل منهم يتربص بالآخر الدوائر. وكل منهم قوي يشيد بقوته ويسعى لتعزيزها. أما أحمس الأول فقد تبوأ عرش مصر ورأى أن حكام الأقاليم ضعاف والسبب في ذلك أنهم عاشوا قرنا ونصف تحت النير الأجنبي. ففقدوا أثناء ذلك ما كانوا يتمتعون به من منزلة سامية بين أهالي القطر.

والخبرة الحربية والسياسية التي اتصف بها أحمس الأول –وكان

اتصافه بها نتيجة مباشرة لنضاله الطويل مع الهكسوس- حتمت عليه أن يؤلف حكومة عسكرية محضة. واضطر أن يصبغ حكمه بالصبغة العسكرية دون أن يهتم بميول المصري نحو السلام والسكينة، ولقد استفاد كثيرا من سياسته العسكرية هذه إذ أن الشعب المصري تعلم طرق الكفاح المختلفة. كما أن الغزوات التي قام بها أحمس عدة سنوات بآسيا اطلعت المصريين على ثروة الأقطار السورية وهكذا صار المصري مجربا لفنون الحرب وعرف أن الحروب تعود على المنتصر بالغنائم الكثيرة فهبت على أثر ذلك في القطر المصري عاصفة فكرية دفعته إلى الاستعمار والفتوحات عدة قرون. وصار المصري يتلهف على الالتحاق بالخدمة العسكرية وأصبحت هذه الخدمة تدر على أفراد الطبقة الوسطى الذين تعودوا حياة الكسل والفقر فيما سبق ثروة كبيرة هذا فضلا عن مركزهم الأدبي الذي يزداد بترقياتهم في الجندية.

وهكذا اندفع الشعب المصري في التيار العسكري وتسلطت على لبه عوامل الحرب وأصبح من الصعب وقفه عند حده. حتى أن سراة القوم الذين عاشوا بعد طرد الهكسوس بل أمراء الدولة أنفسهم كانوا يتسابقون إلى الانخراط في الخدمة العسكرية بغية الحصول على النياشين والألقاب التي تشرفهم وتعلي مراكزهم بين قومهم. ولقد رأينا نموذجا لذلك فيما تحدث به أحمس بن أبانا في تاريخ حياته وكيف كان يفخر ببسالته ويعتز بمكافآته.

خيمت هذه الروح على القطر المصري مدة قرن ونصف بعد طرد الهكسوس وصار أبناء الفراعنة يعينون قودا للجيش. ثم زيد عدد الجيش كثيرا وأمد بالعدد وقسم إلى قسمين: قسم يرابط في الجنوب والآخر يرابط في الدلتا.

ومما لا نزاع فيه أن الحروب السورية دربت المصريين على الخدع العسكرية والأساليب الحربية الراقية كما نرى ذلك عند التحدث عن حروبهم في آسيا. ونحن نفاخر كل الأمم بأن مصر هي الدولة الأولى في التاريخ القديم التي أقامت أساليب الحرب التي يتبعها القواد الحديثين. هذه الأساليب التي أهم ما فيها تقسيم الجيش إلى فرق. وإلى قلب وجناحين. ولقد أتقنوا هذا فسهل عليهم مفاجأة العدو والقيام بحركات الالتفاف حوله. هذه النظم الحربية الدقيقة عرفها مصري الدولة الحديثة بينما كانت الحروب فيما قبل ذلك أشبه بالنهب والسلب والقتل والتحطيم.

ولقد استعمل الجندي المصري كمعدات للحرب القوس والنشاب والبلطة وتمرن أفراده على إطلاق النبال وتسديدها دفعة واحدة فعظمت منزلة فرقة النبال المصرية وامتازت بشهرتها في ذلك النوع من الحرب حتى العهدين اليوناني والروماني. وأهم ما استعمله المصري كوسيلة للحرب هو الحصان والعربة كما ذكرت لكم فيما قبل. ولقد كان هذا التجديد في سبل الحرب أشبه شيء باختراع الطيارة أو الدبابة. إذ أن فرق العربات في الجيش المصري كانت تحوي آلاف العربات والخيول وعندما يعطى لها الأمر بالهجوم كانت تهجم كلها دفعة واحدة فتسحق العدو وتشتته وتدخل في نفوس الجند الذعر والخوف وتتلف حالته المعنوية إلى درجة يتعذر معها التفكير في غير الفرار.

ومن الغريب أن المصري لم يكون فرقة خاصة بالفرسان. بل لم يفكروا قط في ركوب الحصان. ولقد عثرنا بين حين وآخر على صورة تمثل مصريا

راكبا حصانا ولكن كان هذا معدودا باستمرار كحالة استثنائية. ونحن لا نعرف السبب الذي حدا بالمصري إلى عدم تفكيره في ركوب الحصان بل من الغريب أيضا أن المصري لم يركب الحمار وكاد يغلب على الظن أن الامتناع عن ركوبها كان نتيجة لفكرة دينية أو فكرة أخرى جعلتهم يتشاءمون من الركوب وهناك من يعتقد أن الحصان الذي عرفه المصريون وقتئذ كان من فصيلة قصيرة قصرا يجعله غير لائق بالركوب. ولكن لا أود أن أصدق هذا الزعم إذ أن الحمال المصري الذي نستعمله للركوب بل أحيانا نخصصه لذلك لا يختلف عن الحمار في مصر القديمة ارتفاعا أو حجما.

وصار لفرعون مصر اصطبلات تحوي الآلاف من أجود الخيول الأسيوية واقتضت الروح العسكرية وقتئذ أن يكون للملك حرس كامل العدد له شعار خاص ويتبع جلالته في غدواته وروحاته. كما أصبح له أيضا ضباط حربيون خاصون يرافقونه في حله وترحاله.

على هذا النحو ساس الفراعنة القطر المصري بلا معارضة وصارت لهم فيه الكلمة العليا فلم يبق للروح الديموقراطية بين ملوك هذا العصر أي أثر ولم يعد يتجاسر أحد من المصريين أن يحاسبهم على أعمالهم. ومثل هذه الروح لم توجد في الشرق إلا نادراً ونحن نعرف أن الممالك الشرقية كانت تقوى وتتقدم إذا هيمن على شئون الدولة ملك قوي جبار. فإذا ظهرت عليه بوادر الضعف أصبح ألعوبة في أيدي حاشيته وفريسة لدسائس حريمه.

وأحمس الأول الذي طرد الهكسوس كان ملكا تتمثل فيه الشجاعة والشهامة ذا عقل كبير ولم يكن لين العريكة أو ضعيف الإرادة.

وإلى هذا الملك يرجع الفضل في إنقاذ مصر من ظلم الهكسوس وما تقلبت فيه البلاد من الاضطراب والفتن في غضون مائتي سنة.

أمنحتب الأول:

ذكرنا كيف أن أحمس الأول قد تمكن من توطيد أركان المملكة المصرية وجعلها تمتد شمالا إلى آسيا وجنوبا إلى الشلال الثالث. وقد خلف أحمس الأول ابنه أمنحتب الأول الذي بدأحياته بأن أسرع إلى بلاد النوبة لكي يخمد ثورة قام بها شعب "الكوش" ولما بلغ أمنحتب الأول إقليم الشلال الثاني اضطر إلى الرجوع مسرعا إلى غرب الدلتا إذ أن الليبيين قاموا بغزوة كبيرة. ولما تقابل معهم أمنحتب الأول سحقهم وتغلب عليهم وحدثنا بهذه الغزوة أحد قواد الجيش المعروفين في هذا الزمن "أحمس بن نخبت" وبعد ضربه على أيدي هؤلاء الأعداء وجه همه إلى بلاد النوبة وأتم غزواته هناك.

ولما زال الخطر عن حدود مصر الجنوبية والشمالية الغربية، وجه أمنحتب الأول همه نحو غزو الشام ومن دواعي الأسف أنه لم تصلنا أخبار عن تلك الغزوات الأسيوية، ولكن يظهر أن الجيوش المصرية وصلت وقتئذ إلى نهر الفرات، ونستدل على ذلك بما قاله الملك تحتمس الأول وهو الذي أعقب أمنحتب الأول على عرش مصر مفتخرا في أوائل حكمه بأن مملكته قد امتدت إلى الفرات مع أنه لم يكن قد قام فيها بحركة حربية وقتئذ. ولقد مات أمنحتب الأول بطيبة بعد أن حكم عشر سنوات.

تحتمس الأول:

لقد ذكرت لكم عند حديثي عن الأسرة السابعة عشرة أن أصل هذه الأسرة كانت السيدة التي تسمى "نيتي شيري وتتبعنا أحفادها حتى وصلنا إلى أمنحتب الأول. ونحن لا ندري إن كان أمنحبت الأول ترك ولدا وارثا له على عشر مصر، ولكن الذي ندريه أن الذي خلفه هو تحتمس الأول الذي توصل إلى الملك بأن اقترن بأميرة مصرية تدعى "أحمس" بينما لم يصلنا اسم أبيه ولكن اسم أمه "سني سنب" وكان لإعلان توليته الحكم بالنوبة شأن كبير فنقش موظفوا الحكومة هذا الخبر على الأحجار في وادي حلفا وكوبان وغيرهما. ويظهر أن الموظف الذي قام بهذا العمل كان من أصحاب تحتمس المذكور لأن الملك رقاه إلى وظيفة كبيرة مهمة بعد اعتلائه العرش– هي وظيفة الحاكم العام لبلاد النوبة.

ونحن نعرف أن بلاد النوبة قد تبعت مصر كجزء منها منذ عصر الأسرة الثانية عشرة وأصبح منذ ذلك العصر حاكم مدينة الكاب المصرية هو المشرف على شئون بلاد النوبة بل الحاكم العام لها، والسبب في اختيار حاكم مدينة الكاب هو تقسيم مصر في ذلك الحين إلى ثلاثة أقسام:–

١) مصر الشمالية ويراد بذلك الدلتا.

٢) مصر الجنوبية ويراد بذلك مصر العليا حتى مدينة الكاب.

٣) منطقة النوبة وكانت تمد شمالا بمدينة الكاب وجنوبا بالشلال الثاني في عصر الأسرة الثانية عشرة، ولكن في عصر الأسرة الثامنة عشرة عندما توغل المصريون نحو الجنوب ووصلوا في توغلهم إلى الشلال الرابع

تعذر على حاكم الكاب حكم بلاد النوبة الشاسعة، وتعذر عليه أيضا جمع جزيتها لكثرة ما يتطلبه هذا العمل من الانتقالات بين مناطق النوبة المترامية الأطراف، ولذلك نحا ملوك الأسرة الثامنة عشرة نحوا آخر فعينوا حاكما عاما على هذه المنطقة أشبه بمندوب سام يلقب بالمصرية القديمة لقبا معناه "حاكم البلاد الجنوبية ابن الملك المعين على كوش" وجرت العادة أن يقام احتفال بهذا التعيين بحضرة الملك ويقدم فيه أحد موظفي المالية ختم الحكومة إلى هذا المندوب السامي قائلا (هذا ختم فرعون الذي ولاك حاكماً على القطر بين مدينة الكاب ومدينة فياتا) ومعنى ذلك أن سلطة حاكم النوبة بلغت الشلال الرابع، ومعروف أن ما بين الشلالين الثاني والرابع يسمى عند المصريين القدماء ببلاد الكوش. وهذه البلاد لم تكن محكومة وقتئذ بحكومة أهلية أو إدارة ملكية منظمة ولكنها كانت تحت سلطة رؤساء القبائل كل رئيس يسيطر على قبيلته ولقد سمح المصريون لرؤساء تلك القبائل بالاحتفاظ الأسمى بمركزهم الإداري، ولكن هذا النظام لم يعمل به مدة طويلة إذ أن المصريين عينوا بدلا من هؤلاء الرؤساء ضباطا مصريين.

ولم يكن النصف الجنوبي لإقليم السودان المصري –أقصد بذلك بلاد الكوش– أيام تحتمس الأول ساكناً هادئا بل كان مضطرب الأمن والسلام، ونعرف أن المندوب السامي الأول المسمى (نخورع لم يتمكن من القبض بيد من حديد على الحالة هناك، بل كانت أيام حكمه كلها اضطرابات وثورات، ولما رأى تحتمس الأول عجز مندوبه عن معالجة تلك

الحالة المستعصية هناك ذهب بنفسه في أوائل السنة الثانية من حكمه ليضع حداً لتلك الاضطرابات ووصل إلى الشلال الأول وهناك وجد الطريق المائي مسدوداً بالصخور فلم يصرف وقتاً طويلا في فتحه فصمم على الوصول إلى ما وراء هذا الشلال عن طريق البر– وتابع الملك زحفه حتى وصل إلى الشلال الثالث وكان بذلك أول الفراعنة الذين دخلوا ذلك المكان الملقب بجنة أعالي النيل ونقصد بذلك إقليم دنقلة الحالي وكلنا نعرف أن هذا الإقليم خصب للغاية وأن النيل يجري إلى مسافة مائتي ميل حتى الشلال الرابع دون عائق في طريقه. ونصب الملك في تلك الجهات خمس لوحات حجرية وصف عليها غزواته وانتصاراته ثم قفل راجعاً بعد ذلك إلى الشلال الأول بعد مضي سبعة أشهر قضاها كلها في الضرب على أيدي الثوار في بلاد النوبة، ويرجع أن بطء الملك في رجوعه إلى مصر كان بمناسبة قيامه بمشروعات نافعة منظمة في كل المناطق التي زارها في بلاد النوبة وبعد أن أتم تحتمس الأول إخضاعه لبلاد النوبة وجه همه نحو آسيا. ولكن يجب علينا أن نتذكر أن تحتمس الأول قد ورث عن أمينحتب الأول بلاد آسيا المستتب فيها الأمن والتي كانت قد أخضعت تماماً في عصر الملك السالف، إذن لم يقم تحتمس الأول بأعمال باهرة في تلك الجهات كالتي قام بها أمينحتب الأول.

وما دمنا نتكلم عن آسيا فأود أن أذكر لكم الشعوب المختلفة التي كانت تقطن آسيا الغربية في عصر الأسرة الثامنة عشرة:

سكان هذه البلاد الأسيوية ساميون لا يتعد أن يكونوا قد هاجرو إليها

من صحراء العرب، واسم الشعوب التي تسكن المناطق الشمالية (العراميون) وشعوب المناطق الجنوبية الكنعانيون)، ولقد حتمت عليهم طبيعة الأرض التي سكنوها أن يعيشوا قبائل منفصلة لا اتحاد بينهم ولا تضامن. فهذه البلاد تتخللها الجبال والتلال، وتقسمها بذلك إلى إمارات صغيرة مستقلة يحكم كلا منها (أمير) والغريب أنه هذه الإمارات لم يستقل بعضها عن البعض الآخر سياسياً فقط بل أيضا دينيا فكان لكل منها معبود خاص وقام الشقاق والنزاع بين هذه الإمارات طمعاً في النهب والغزو، وأهم هذه الإمارات كانت إمارة قادش على نهر الأيرنت وهذه الأهمية ترجع إلى موقعها الجغرافي الذي ميزها: إذ أنها تشرف على الطريق الشمالي الموصل إلى مناطق سوريا الداخلية، ومن ناحية أخرى على الطريق التجاري الذي يتفرع نحو الشرق فيصل إلى نهر الفرات ثم إلى بابل وإلى الجنوب فيصل إلى مصر وبلاد العرب، ثم إلى الغرب فيصل إلى البحر الأبيض المتوسط. كل هذه المميزات سهلت لقادش أن تتمتع بالمكانة الأولى بين هذه الإمارات المختلفة، ومكنتها لذلك من إخضاع بعض الإمارات الأسيوية وضمها تحت لوائها. ونحن نعتقد أن مدينة قادش كانت المقر الذي خرج منه الهكسوس) وغزوا مصر. ولعل هذا هو السبب الذي حتم على تحتمس الثالث ألا يهدأ قبل أن يسحق (قادش) ويدمرها.

ولو أن هذه الإمارات المختلفة لم تتمتع بنظم إدارية ولكنها كانت على جانب عظيم من الحضارة والمدنية. فقد عرفنا كيف أن الهكسوس علموا المصريين الفنون الحربية وصناعة المعادن والعجلات وفوق هذا

اشتهر هؤلاء الساميون بكثرة تجارتهم مع البلاد الأجنبية بل نعتقد أن ملكة فينيقيا أسسها بعض المهاجرين الساميين. ونعلم عن الفينيقيين أنهم كانوا تجاراً بحريين ماهرين أخذت سفنهم تنقل مصنوعاتهم إلى أقصى البلاد في البحر الأبيض المتوسط وربما وصلوا بسفنهم إلى ممالك أوروبا الشمالية، ثم زحف الفينيقيون على شاطئ آسيا الصغرى فاستولوا على رودس وجزر الأرخبيل اليوناني وفي كل مكان حلوا به أسسوا محطات تجارية، وبذلك كثرت تجارتهم، وازدادت ثروتهم، ونشأت بهذه البلاد مدن غنية عظيمة مثل صور، صيدا، جبيل، أرواد، بطرون أما مركز فيينيقا التجاري فقد استمر من منذ ظهور الإمبراطورية المصرية حتى عصر (هومير) الذي ذكرهم في أشعاره الشيقة وقال أن هؤلاء القوم يصح أن نجعلهم مثلا لكل الأمم المتحضرة.

وحوالي عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ظهرت قبائل إيرانية هاجرت من بلادها في شمال إيران واستوطنت منحنى نهر الفرات القريب من البحر الأبيض المتوسط وهناك أسست دولة عرفت في التاريخ القديم بدولة الميتاني وصلت بنفوذها جنوبا حتى مدينة تونب وشرقا حتى مدينة نينوي. وهذه الدولة لم تلبث أن عظم شأنها واشتد بأسها حتى أصبحت تناوئ بابل في آسيا الصغرى.

هذه هي الحالة السياسية التي كانت عليها بلاد آسيا القريبة في أوائل عصر الأسرة الثامنة عشرة وتنازع السلطة بين أمم فنية حربية جعل مصر كلما انغمست في شئونها الداخلية دون أن تفكر في شئونها الخارجية

فقدت مركزها الحربي هناك فيضطر الملك أن يخرج بحملة إلى هذه البلاد. وهذا ما حدث في عصر تحتمس الأول. فما كاد ينتهي من غزوته في بلاد النوبة حتى أسرع إلى الشمال لكي يخمد نيران ثورة قامت هناك ضد الحكم المصري. ومن دواعي الأسف أننا لم نعثر على البلاغات الرسمية للحركات العسكرية التي قام بها تحتمس الأول في آسيا. ولكن الضابط أحمس بن نخبت حدثنا في تاريخ حياته عن هذه المعارك وقال أنه اشترك فيها وأحضر لفرعون مصر إحدى وعشرين يدا مبتورة من قتلى الآسيويين وعجلة حربية وفرنسا.

وشيد تحوتمس الأول لوحة حجرية عند منحنى الفرات بالقرب من البحر الأبيض ذكر فيه أن ذلك المكان هو الحد الأقصى لممتلكات مصر الآسيوية.

وهكذا حقق الملك ما افتخر به منذ سنة واحدة على ذلك الأثر الذي نصبه عند الشلال الثالث على حدود مملكته الجنوبية كما سبق.

شقاق التحوتمسيين وحكم الملكة حتشبسوت

وعندما قاربت المنية تحتمس الأول حدث شقاق كبير في نسله. هذا الشقاق ظهرت نتائجه على الآثار التي وصلت إلينا من هذا العصر ولكن كيف كان هذا الشقاق؟ وكيف صار معضلة تعب في تفسيرها كل المشتغلين بالآثار، فهناك نظريات كثيرة كلها متضاربة أهمها تلك التي قام بها العلامة بربستد ثم زيته ثم وينلوك وأنا لا أريد أن أثقل عليكم في تفسير هذه النظريات والبراهين التي استند عليها كل منهم ويكفي أن أخبركم بنظرية شيخ الأثريين العلامة زيته.

والبراهين التي تدلنا على هذا الشقاق المستحكم كثيرة أهمها اسم الملكة حاتشبسوت المنقوش على معبدها في الدير البحري.

إذا أن هذا الاسم عومل بإحدى الطرق الستة الآتية:

١) أما شطب.

٢) أو شطب واستبدل باسم تحتمس الأول.

٣) " " " " " الثاني.

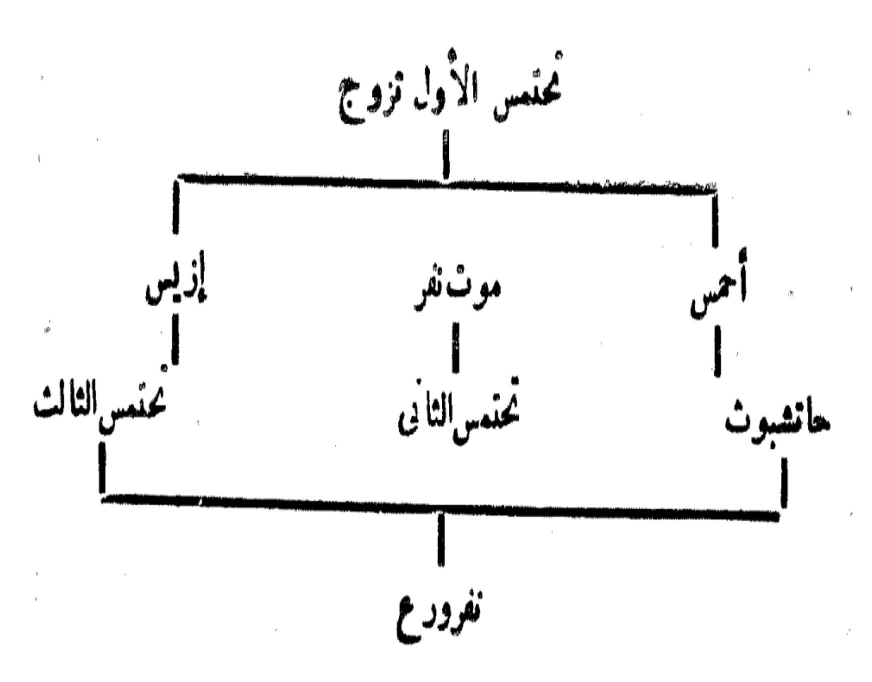
٤) " " " " " الثالث.

٥) " " " " الملك أو ملك الأرضين.

٦) " " " " " سيتي الأول وهذا لا يعنينا هنا.

وكل هذا يدلنا على أن حاتشبسوت كانت سيدة اغتصبت الملك اغتصابا وحكمت مصر رغم أنف كل من رأى أنه أحق بهذا العرش.

والآن فلننظر ماذا أنتجت أبحاث زيتة:

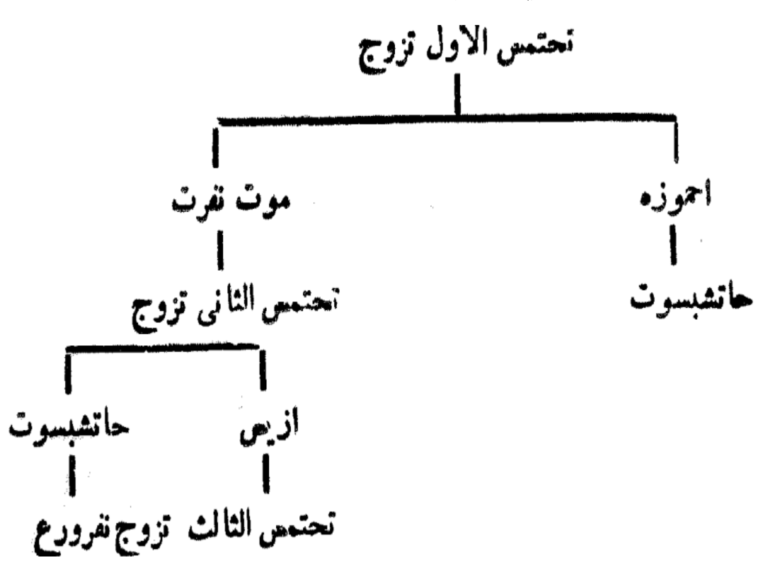


وبعد ذلك حكم هؤلاء الملوك كالآتي:-

(١) تحتمس الأول (٢) ثم تحتمس الثالث أولا بمفرده ثم مع حاتشبسوت (٣) تحتمس الثاني عزلهما من العرش وحكم بمفرده وكان لا يزال تحتمس الأول على قيد الحياة (٤) تم تحتمس الثالث استرجع الملك لنفسه وحكم أولا مع حاتشبسوت ثم بمفرده ثم امنحوتب الثاني.

هذه هي النظرية الوحيدة التي تسهل علينا فهم ما حدث من شطب لاسم الملكة حاتشبسوت على آثارها. ولكنها إلى حد ما معقدة وخصوصا لأننا لا ندري هل تزوج تحتمس الثالث بحاتشبسوت أولا.

أما نظرية وينلوك فهي كالآتي:



وعلى ذلك يكون "." تحتمس الأول ثم "٢" تحتمس الثاني ثم "٣" تحتمس الثالث مع حاتشبسوت امرأة أبيه أولا ثم بمفرده.

ولكن مما يؤسف له أنه ليس لدينا ما يثبت أن تحتمس الثاني تزوج حاتشبسوت سوى أنها نقلت جثته إلى مقبرة أبيها تحتمس الأول.

ما تحدثنا به الآثار:-

أولاً: نستدل على أن تحتمس الثالث تمكن بصعوبة من الجلوس على عرش مصر من ناحية وعلى أن هذا حدث في عصر تحتمس الأول من النقش الآتي:- في معبد الكرنك مناظر تدلنا على أن تحتمس الأول قام باحتفال كبير للإله أمون وبعد أن قاد الاحتفال وقدم البخور لتمثال الإله أمون حمل الكهنة هذا التمثال كالعادة من قدس الأقداس إلى ساحة المعبد

الكبرى، وكان تحتمس وقتئذ شابا صغيرا في السن وكان يتقلد منصب كاهن من كهنة أمون، وقد جلس بين الكهنة في قاعة الأعمدة الشمالية من المعبد، فطاف الكهنة بتمثال المعبود حول المعبد بطريقة يفهم منها أن المعبود يبحث عن شخص بعينه ثم وقف التمثال فجأة أمام الأمير الشباب تحتمس الثالث فخر هذا ساجدا على الأرض. وبعد ذلك تعطف الإله وأظهر رغبته أن يجلس هذا الأمير على عرش مصر فنفذت إرادة الإله في الحال ثم سرد تحتمس الثالث هذه الحادثة مرة أخرى أمام رجال بلاطه وأمر أن تكتب على جدران المعبود كالآتي:

"كنت أود أن أزور الإله المعظم في معبده بمدينة أمون "عين شمس" لكي اطلب منه أن يجلسني على عرش مصر ولكني صعدت بنظري إلى السماء فشاهدت فيها الإله بعظمته البهية. وحياني الإله وأنعم علي بعرش مصر وبالألقاب الملكية؟

أليس هذا كله معناه أن تحتمس الثالث تحايل لكي يجلس على عرش مصر وإن كهنة أمون هم الذين ساعدوه في ذلك؟

ثانياً: كتب المهندس أنيني في مقبرته ما يأتي:-

"كان تحتمس الثالث حاكما جالسا على عرش أبيه الذي أعطاه الحياة أما أخته الزوجة المقدسة حاتشبسوت فكانت تحكم البلاد بإرادتها فطأطأت لها مصر رأسها مطيعة لأوامرها. ولا غرابة في ذلك فجلالتها من النسل المقدس العظيم الخارج من صلب الآلهة فكانت بمثابة حبل مقدم السفينة في البلاد الجنوبية ووتد مرسى السفينة عند أهالي مصر الجنوبية وحبل مؤخر السفينة في

البلاد الشمالية. لقد كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهي والمشروعات السديدة والقول المليح الذي ملأ أهالي القطر فرحا وسرورا".

وإن هذا ليدلنا على أن حاتشبسوت كان لها حزب كبير مكون من رجالات الدولة: فانيني كان أكبر مهندسي العصر وكان فوق ذلك رئيس خزانة الذهب والفضة، وكان سنموت أيضا أشد الناس تقربا إليها وأكثرهم نفوذا في عصرها المدعو حابو سنب كان وزيرا ورئيس كهنة أمون وعميد طائفة الكهنة المصريين. وتحوتي الأمير الذي كان مشرفا على شئون الموظفين. هذا الحزب الذي كان بين يجمع أعضائه أكبر رؤوس الدولة لكن من اختلاق قصة عجيبة سردها بمهارة للشعب. هذه القصة هي كيف أن حتشبسوت هي ابنة الإله وليست ابنة الملك أحمس. نقشوا ذلك على جدار معبدها في الدير البحري حيث نشاهد الآن طريقة ولادتها فترى كيف أن الإله أتون يخاطب أم الملكة حاتشبسوت قائلا: ستحملين مني بابنة تدعى حاتشبسوت على عرش مصر ويحكم البلاد كلها بمهارة فجاء هذا بمثابة إعلان مقدس للأهالي يبين حاتشبسوت ملكة على مصر. ثم صورت حاتشبسوت كطفلة. ثم كشابة ألحقوا هذه الصور بأخرى أظهروا فيها كيف يقوم آلهة مصر المختلفين بتتويج حاتشبسوت ملكة على مصر. ثم رسموا تحتمس الأول مجتمعا بابنته حاتشبسوت في احتفال كبير بالقصر الملكي في عيد رأس السنة مخاطبا إياها بأنه يعرف ورثته على عرش مصر وفوق ذلك أنهم رسموا تحتمس الأول مخاطبا البلاط قائلا: عليكم أن تطيعوا جلالتها "أي حاتشبسوت" وأن تكونوا جميعا طوعا لإرادتها. فالذي يخضع لها منكم يعيش

أما الذي يغتاب جلالتها فإنه يترك حيا. ثم هناك صورة للملك تحتمس الأول على جدران معبد الكرنك، وهو يطلب إلى الآلهة أن يمنحوا ابنته عهدا زاهرا وحكما عادلا.

من هذا كله تبين لنا ما يأتي:

أن تحتمس الأول عندما شعر بضعفه وعدم قدرته على تحمل أعباء الحكم، فتنازل لابنه تحتمس الثاني عن الحكم وزوجه من ابنته الشرعية حاتشبسوت. لكن تحتمس الثاني كان شابا مريضا ضعيفا مات بعد مدة وجيزة وكان ذلك في عهد أبيه تحتمس ودفن في المقبرة التي أعدها والده لنفسه. على أن يدفن بعد ذلك تحتمس الأول في مقبرة ابنته في منطقة جبانة طيبة. هنا انقسم المصريون إلى حزبين كبيرين: حزب يطلب إجلاس حاتشبسوت الابنة الشرعية كملكة على مصر وذلك لأن أمها أحموزة تنسب إلى البيت الملكي العتيق الذي كان له الفضل في طرد الهكسوس والآخر يطلب إجلاس تحتمس الثالث ابن المحظية. ولكن الملك كان يميل في أول الأمر إلى أن يخلفه رجل على العرش فدبر تلك الحيلة مع كهنة أمون واختار الإله تحتمس الثالث الشاب ملكا على مصر على أن يتزوج من حاتشبسوت، ولكن الحزب الآخر حزب حاتشبسوت وكما رأيتم كان يحوي أن الرءوس المفكرة في مصر أجبر الملك على الاعتراف بابنته ملكة على مصر ولكنه لم يرض بذلك حتى إذا توفي تحتمس الأول انتهز حزب حاتشبسوت الفرصة وأدخلوا في عقول الشعب رضى تحتمس الأول عن تولية ابنته ملكة شرعية على مصر وصوروا القصص والأحاديث التي تبين

أحقيتها كما تبين رضى أبيها عن ذلك، ولقد سردت لكم ما عثرنا عليه من النصوص الناطقة بذلك ولقد كان حزب حاتشبسوت من القوة بمكان حتى أنه استطاع شل يد تحتمس الثالث -إما بإقناعه أو اضطراره- فظل منزويا مهملا يقوم بوظيفة الأمير الزوج حتى وفاة حاتشبسوت وعندئذ انفرد بالحكم فكان أقدر من تولى حكم مصر في عصر الدولة الحديثة.

حتشبسوت

أرادت حتشبسوت أن تمثل دور الفرعون الحقيقي، فتخلت عن لقب "ملكة" وسمت نفسها ملك مصر وتزيت بزي الرجال ووضعت لنفسها لحية مستعارة، وكان ذلك من خواص الملوك فحسب، وأضافت إلى اسمها الأصلي اسم التتيويج "معات كارع" ولعلها اتخذت هذه الاحتياطات خشية أن يغتصب منها الملك أمير آخر من الأسرة.

وقد كرست حتشبسوت كل جهدها العظيم مدة حكمها في إقامة معبدها المدرج الذي لا يزال قائما إلى الآن في الجهة الغربية من النيل عند الأقصر ويطلق عليه اسم الدير البحري، وهندسة هذا البناء فريدة في بابها في فن المعمار المصري، وعلى جدران هذا المعبد المتناسق البناء رسم فنانو الملكة المناظر الهامة للحملة البحرية المكونة من خمس سفن أرسلتها إلى بلاد بنت "الصومال" لإحضار أشجار الروائح العطرية من تلك البلاد لزرعها في مصر: وقد سارت الحملة في النيل ثم في قناة الدولة الوسطى التي تمتد على طول وادي الطميلات "بين الإسماعيلية والزقازيق" وهي القناة التي كانت تربط النيل بالبحر الأحمر. وبعد أن عبرت البحر الأحمر في سلام وصلت إلى بلاد بنت

تحمل هدايا لأمير هذه البلاد منها مجموعة تماثيل للملكة والمعبود آمون واقف بجانبها، ثم عادت إلى مصر بعد أن امتلأت هذه السفن بطرائف تلك البلاد من أشجار عطرية وعاج وأبنوس وذهب وحيوان نادر وجلود فهود وعدد من أهالي هذه البلاد رجالا وأطفالا وقد أهدت الملكة معظم هذه الطرائف إلى الإله آمون شكرا له على نجاح هذه البعثة وعودتها سالمة. وقد قامت كذلك حتشبسوت بإصلاح معابد الآلهة المحترمة وبخاصة معبد الإله "سخمت" في بني حسن ومعبد آمون بالكرنك، وفي هذا المعبد الأخير أقامت عدة مسلات لم يبق منها إلا واحدة قائمة في مكانها الأصلي وصنعت الجزء الهرمي في قمة كل منها من خالص الذهب وذكرت ذلك على النقوش التي تزين أوجه هذه المسلات، وأخيرا أعادت استغلال مناجم استخراج النحاس ومحاجر الفيروز في شبه جزيرة سينا وكانت قد بقيت مهجورة منذ غارة الهكسوس.

وماتت حتشبسوت بعد أن حكمت نحو ٣١ سنة في الستين من عمرها "١٤٩٥– ١٤٧٥ ق.م" وتعد من أعظم الملكات اللواتي عرفهن التاريخ وقد قام تحتمس الثالث بتخريب كل ما أقامت من الآثار، وبمحو اسمها وإبداله باسمه هو، ولم يقتصر الأمر على الملكة نفسها، بل تعداها إلى موظفيها الذين كانوا من حزبها ومحبيها كالمهندس سنموت فإن قبره قد خرب وشوه. وقد كان هذا المهندس من أقرب المقربين لدى حتشبسوت بل كان بمنزلة الخليل لها.

تحتمس الثالث

لقد تركت حتشبسوت لشريكها في الملك عرشا محفوفا بالمصاعب إذ كانت الدولة المصرية لم تزل في مهدها، وقد كان كل جهد حتشبسوت

مقصورا على الإصلاحات الداخلية فنية وهندسية وزراعية، ولم تعن قط بالأمور الحربية وتوسيع ملكها خارج الحدود المصرية. ولما كانت الجيوش المصرية لم تظهر في سوريا منذ عهد تحتمس الأول فإن صغار الأمراء في هذه الأصقاع قد مالوا إلى العصيان والتخلص من الإتاوات التي كانوا يدفعونها لمصر سنويا. وقد تجمعوا كلهم تحت لواء أمير مدينة قادش الواقعة على نهر الأورنت "نهر العاصي" لمقاومة فرعون مصر.

ولم يكد تحتمس الثالث يتخلص من حتشبسوت بموتها حتى زحف بجيش إلى الشمال ليشتت شمل هذا الحلف، وقد تجمعت القوات السورية عند بلده "مجدو" فقابلهم هناك وهزمهم ولكن أمير قادس تمكن من الفرار واكتفى تحتمس بأسر بعض أفراد أسرته. وقد حفظ لنا التاريخ هذه الغزوة وكذلك قائمة بكل الغنائم التي استولى عليها الفرعون على جدران معبد "آمون" بالكرنك.

وقد سار "تحتمس" في الجهات الجنوبية من لبنان، إلى أن وصل إلى "دمشق" وترك في هذه البلاد حاميات مصرية حتى يكون في مأمن من قيام أمراء هذه الجهات مرة أخرى. ثم رجع إلى عاصمة ملكة مظفرا إلا أنه لم يتمكن من المكث فيها زمنا طويلا لقيام الثورات في "سوريا" ثانية. وقد توالت غزوات "تحتمس" في هذه البلاد في كل سنة تقريبا من سني حكمه.

وقد كان استيلاؤه على "حلب" في بلاد النهرين في حملته الثامنة في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه "أي بعد وفاة حتشبسوت باثنتي عشرة سنة "لأنه كان يحتسب في سني حكمه المدة التي حكمت فيها حتشبسوت

وأهملته"، وذلك بعد أن هزم الأعداء في "قرقميش" الواقعة على نهر الفرات، ومن ثم عبر هذا النهر وأقام لوحة تذكارية على الشاطئ الشرقي منه على مقربة من اللوحة التي نصبها سلفة "تحتمس الأول".

ومنذ ذلك العهد كانت كل آسيا الشرقية ترتعد أمام القوة المصرية حتى أن "بابل" نفسها، وملك الحيثيين كانا يتسابقان في إرسال الهدايا إلى فرعون مصر استجلابا لرضاه وزلفى إليه.

وكانت القوات البحرية مثل "قبرص" "واقريطش" "وجزر بحر ايجه" تخاف أيضا أن تتبع تحت سلطان أسطور "تحتمس" ولذلك لم يكن سلطان مصر ثابت الأركان على البر فحسب بل أصبحت مصر كذلك صاحبة السلطان البحري، وقد استمر عاهلة بحرية، لها قصب السبق على عهد البطالسة حينما كان الأسطول المصري صاحب السيادة في البحر الأبيض المتوسط.

هذا إلى أن "تحتمس الثالث" قد نظم الفتوح النوبية إلى الشلال الثالث، وكذلك احتل ثانية واحات صحراء لوبيا، مما زاد في قوة مصر، ورفعها إلى الذروة في العالم أجمع.

ولقد كان من جراء اضطرار "تحتمس" إلى العودة إلى مقر حكمه كل سنة ليقضي في مصر فصل الشتاء، بعد انتهاء كل حملة من حملاته على البلاد الأسيوية– أن الأمراء المتذمرين كانوا يقومون بمؤامرات ثورية ضد عدوهم وسيدهم المشترك ليتخلصوا من نير حكم مصر. وكان "تحتمس" مضطرا إلى أن يريهم قوة بأسه في بلاد "الأرنت" والفرات بعد انقضاء

الشتاء من كل عام بين سنتي ٣٤– ٤٢ من سني حكمه. وعلى الرغم من تقدمه في السن. فإنه أرسل أسطولا إلى الشواطئ السورية عام ٤٣ من حكمه وتمكن به من إخضاع الأمراء الثائرين الذين أتوا إليه مقدمين له فروض الطاعة لآخر مرة قبل أن يعود إلى طيبة حيث توفى بعد وصوله عام ١٤٤٧ ق.م.

ويلقب "تحتمس الثالث" كبار المؤرخين بأنه نابليون مصر، وأنه أعظم الفراعنة مجدا وسلطانا. والواقع أنه لم يكن بطلا حربيا بكل معاني الكلمة فحسب بل كان فوق ذلك إداريا حازما نافذ البصيرة في تسيير الأمور في بلاده، هذا إلى أنه كان منظما عظيما ومشيدا كبيرا للمباني الضخمة، فقد ملأ البلاد بالمعابد الفخمة والقصور والمسلات، ولا شك أنه يعد أول عبقرية عالمية ظهرت في التاريخ، إذ أن حكمه الطويل لم يكن عهدا ممتازا في تاريخ مصر فحسب بل في كل حياة الشرق الأدنى. فهو أول فرعون تطاحنت معه الممالك العظيمة المختلفة التي كان يتألف منها العالم المتمدين إذ ذاك، وبعد أن ذاقت شدة بطشه أصبحت العلاقات بينها وبينه على أحسن ما تكون. وكذلك في عهده بدأت الممالك المتمدينة المختلفة تخرج عن دائرة بلادها ويختلط بعضها بالبعض الآخر، وتتبادل المنافع فيما بينها في كل مرافق الحياة.

يضاف إلى كل هذا أن "تحتمس الثالث" كان أول من وضع نظاما حاذقا في استمالة أهالي البلاد المستعمرة وذلك أنه كان يأخذ أولاد الأمراء وحكام المستعمرات المصرية في "سوريا" وغيرها ويربينهم في مدارس مصر

ثم يجعلهم يتولون حكم بلادهم بعد وفاة آبائهم، وبذلك كان يضمن حبهم لمصر وتعلقهم بها.

أمينحتب الثاني

يمكننا أن نفهم –مما سبق– مقدار سلطان "تحتمس الثالث" وبطشه في البلاد التي كان يسيطر عليها خارج مصر، ولذلك لما توفي انبعث في قلوب الأمراء الأجانب شيء من الراحة والأمل في التخلص يوما ما من النير المصري ولم يمض زمن طويل حتى أخذ كل منهم يمتنع عن دفع الجزية التي كانت لزاما عليه كل عام، ولكن (أمينحتب الثاني برهن أمام هؤلاء على أنه ابن (تحتمس الثالث) فلم تمض بضعة أشهر على توليته عرش الملك ١٤٤٧ ق.م) حتى ظهر بجيشه منتصرا في "آسيا"، والظاهر أنه قاد جنوده ووصل بهم إلى قلب بلاد "متاني" ولم يكن والده قد وصل إليها في فتوحاته من قبل، ولما عاد إلى (طيبة قدم القرابين البشرية من الملوك المتهورين إلى آلهة أمون، ثم صلب جثثهم على جدران عاصمته لتكون عبرة ودرسا لغيرهم من الأمراء، وقد كان نصره حاسما ويظهر أنه لم يعد بجيوشه كرة أخرى إلى ممتلكاته الشمالية إذ كان الدرس الذي أعطاه نافعا، ولذلك كان في مقدوره أن يخصص ما بقى من مدة حكمه في تنظيم حدود بلاده الجنوبية، ويقوي سلطانه في بلاد النوبة وعلى أثر عودته إلى طيبة جهز حملة إلى حدوده الجنوبية أفلحت في مد سلطانه إلى الشلال الرابع، وهناك بنى قلعة (نباطة وعليها علق جثة أحد الأمراء السبعة الذين أحضرهم معه من غزواته في بلاد آسيا. وفي إقليم "كروه". حيث بلدة نباطة وهي التي

أصبحت منذ ذلك العهد الحد الفاصل للممتلكات المصرية أقام أمينحتب لوحات تذكارية لتكون علامة لنهاية ممتلكاته، وقد نصب لوحات أخرى في مادة بين الشلال الثاني والثالث، وفي الفنتين أمام بلدة أسوان لتكون ذكرى لمن بعده بأنه أتم بناء معابد والده أمون وجملها في هاتين الجهتين.

تحتمس الرابع

مات أمينحتب الثاني بعد أن حكم نحو ٢٧ عاما "١٤٢٠ ق م" ودفن مثل والده في وادي الملوك. وتولى بعده ابنه "تحتمس الرابع" ومن المحتمل أنه لم يكن الوارث الحقيقي للعرش، والظاهر أنه تولاه عن طريق وحي إلهي وهذا الملك معروف لدينا قبل توليته الملك. وذلك أنه بعد انتهائه من الصيد في يوم ما. وهو لا يزال أميرا– أخذته غفوة في فيئ تمثال أبي الهول العظيم بالجيزة وبعد أن أفاق من غفوته أمر بإزالة الرمال عن هذا التمثال وأقام سورا من اللبن حوله وقواه بآخر على بعد عدة أمتار لمنع الرمال عنه، ولا يزال السور محفوظا بعضه إلى الآن. وكذلك أقام لوحة بين يديه، ومكافأة لهذه الخدمات الجليلة وعده هذا الإله بأن يوليه الملك.

وإلى "تحتمس الرابع" يرجع الفضل في أنه أول فرعون أقام سياسة المعاهدات في آسيا، فقد عقد معاهدة بينه وبين مملكة "متاني" ضد قوة الحيثيين التي كانت ترداد وتهدد التخوم المصرية. وقد قام "تحتمس الرابع" بحملة حزبية في آسيا غير أنا لا نعرف عن تفاصيلها شيئا اللهم إلا انه وصل إلى بلاد النهرين وأجبر رؤساء –لبنان– على أن يرسلوا إليه الأخشاب اللازمة لصنع سفينة "آمون" في طيبة، ولما أحس بأنه في حاجة

إلى صداقة هذه البلاد الأسيوية أرسل سفيرا إلى "ارتاتاما" ملك –متاني– وطلب من هذا الأمير العظيم أن يزوجه من ابنته. وبعد أن أظهر في بادئ الأمر عدم الرضى عن ذلك عاد ثانية وقبل أن يزوج ابنته من ملك مصر وأرسلها إليه وكان اسمها المصري –موتموي– وهي التي أصبحت فيما بعد أم وارث العرش أمينحتب الثالث وبذلك دخل الدم الأجنبي في عروق الأسرة الفرعونية وبعد أن وطد علاقته ببلاد– متاني شرع في الاتفاق مع ملك بابل وأفلح في ذلك أيضا.

وبعد أن انتصر في بلاد النوبة على بعض العصاة في السنة الثامنة من حكمه عاجلته المنية "١٠١٠ ق م" وتولى بعده الملك ابنه "أمينحتب الثالث" الذي أنجبته له أميرة "متاني".

أمنحتب الثالث

يعد هذا الفرعون من أفخم ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وخاتمة عظماء فراعنة مصر. وقد كان آخر غزوة في بلاد النوبة على يديه والظاهر أنه لم يتعد في هذه الغزوة الحدود التي وصل إليها من سبقه من فراعنة مصر. وقد كان تمصير البلاد النوبية الذي شاهدناه قد وصل إلى الشلال الثاني في عهد الأسرة الثانية عشرة، ثم وقف في عهد الهكسوس، ثم أخذ ثانية يتقدم شيئاً فشيئا في عهد الأسرة الثامنة عشرة فوصل إلى الشلال الثالث ثم إلى الشلال الرابع، على أن هذا التمصير لم يصل الزنوج، وإذا قلنا إن بعض الزنوج دخلوا مصر من جهة الجنوب وتمصروا فإنه من المحقق أن مصر في كل عهودها لم تمصر إقليما من الأقاليم السودانية.

أما في آسيا فإن السيادة المصرية كانت معترفا بها تماما من ملوك "بابل" "وآشور" "ومتاني" "وعلاقي"، (في الشمال الأقصى من سوريا). وقد كشفت منذ أربعين عاما عدة ألواح مكتوبة بالخط المسماري في محفوظات "تل العمارنة" (اخيتاتون) وهذه الألواح هي التي تعرف في التاريخ بـ (خطابات تل العمارنة) وهي مورد فياض منقطع النظير يعطينا المعلومات الخاصة بالعلاقات بين مصر والممالك الأسيوية الصغيرة في ذلك العهد، ومن بين المعلومات الهامة التي فيها نجد أن ملك مصر قد أرسل عشرين وزنا من الذهب إلى ملك أشور وقد فعل ذلك ليخطب وده وصداقته، وقد أرسل ملك –علاقي– كمية من النحاس إلى مصر. وكذلك كشفت لنا عن بداية سياسة التزاوج بين ملوك مصر وملوك آسيا، فمن ذلك أن ملك بابل "قادا شمان– انليل" الذي كان دائما في حاجة إلى الذهب تفاوض مع ملك مصر في أن يزوج ابنه من أميرة مصرية، وقد حدث كذلك تزاوج ببنات ملوك –متاني–.

وقد كانت سياسة –أمينحتب الثالث– أساسها السلم والتجارة والأمور الاقتصادية، وكانت البلاد المختلفة تقوم بحركة تجارة جدية فيما بينها بتبادل المحاصيل، وذلك إما بطريق البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، أو بالنيل وفروعه، أو بالقوافل عن طريق خليج السويس وبخاصة– فلسطين– وسوريا– وقد بدأ التأثير الأجنبي ولاسيما الأسيوي و – الأيجي– يظهر في معظم الصناعات المصرية، ولذلك أخذ النفوذ المصري يتسرب إلى البلاد الشرقية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. ولأجل أن

ينظم هذا التبادل التجاري ويقوم على أساس متين، أخذت مصر تحافظ على الطرق التجارية وتحرسها ووضعت عليها ضرائب غاية في الحكمة وذلك عن البضائع التي لم تكن مرسلة للملك مباشرة، وبذلك حفظت، الصناعات الوطنية المصرية، من جهة وزيد في دخل إيرادات الحكومة من جهة أخرى.

أمينحتب الرابع (اخناتون)

إن المتتبع لسير الحوادث التي سردناها يمكنه أن يلحظ تلبدا في سماء السياسة المصرية. إذ الواقع أن الحيثيين في آسيا الصغرى لم يذعنوا لسيطرة السياسة المصرية، وهذا هو السبب الحقيقي الذي حدا بالفراعنة إلى وضع السياسة التجارية والعلاقات الزوجية السالفة الذكر لخضد شوكتهم، ولذلك كان جل هم الحيثيين موجها إلى القضاء على هذه العلاقات إما بالقوة أو بالحيلة. ويظهر ذلك حينما جلس "امينحتب الرابع" على عرش الملك وقد كان لا يزال في حداثة سنه بعيدا عن تجارب الملك مما جعل أيام مجد الدولة المصرية معدودة.

والواقع أن "طيبة" في هذه الفترة كانت في حاجة إلى ملك نشيط قوي العزيمة وسياسي ماهر وجندي نافذ الإرادة ولم تكن في أمينحتب هذا أية صفة من هذه الصفات، فقد كان جميل الوجه يحب مجالسة النساء والتحبب إليهن وخاصة أمه –تي– وزوجته الشابة –نفرتيتي–. هذا إلى أنه كان يمضي معظم وقته في المناقشات الفلسفية والأحلام اللاهوتية.

ولم تكن أمه "تي" من أصل أجنبي كما كان يظن بعض المؤرخين ولكن

من المحقق أنه لم يكن يجري في عروقها دم ملكي، لأن أثاث والديها "أويا" و"تويا" الذي وجد معهما في مقبرتهما يدلنا على أنهما كانا من عامة الشعب.

وقد تزوج بها أبوه "أمينحتب" في السنتين الأوليين من توليته العرش ويحتمل أن يكون الزواج قبل ذلك. وقد أمر أمينحتب بصنع عدة جعارين تذكارا لهذا الزواج، ولبس لدينا إلا بعضها. والظاهر أن هذه الملكة كان لها تأثير عظيم جدا على زوجها مما أعطى للملكية صبغة مخنثة بقيت مستمرة في باقي ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

والملكة "تي" هي أول زوجة أخذت تشارك الفرعون في إدارة حكم البلاد ولعبت فيها دورا هاما.

ولما توفى "امينحتب الثالث" بعد أن حكم نحو ٣٦ سنة "١٤١١-١٣٧٥" ق م" اظهر خليفته على العرش اهتمامه بفضائل قرص الشمس "آتون" أكثر من مستعمراته في آسيا وكان لقرص الشمس معبد في عين شمس وآخر في الكرنك وقد بدأ القوم اقتداء به يدعونه الإله الأحد والإله الفرد منبع كل النور وكل الحرارة ثم منبع كل الحياة على الأرض.

وقد فكر الملك أمينحتب الرابع أنه بتمثيله إله الشمس شكل مادي محسوس في صورة قرص شمس تتشعب منه أشعته وينتهي كل شعاع بيد آدمية توزع الحرارة والنور على البشر يمكنه أن يخاطب كل الشعوب مهما اختلفت أجناسها بطريقة مفهومة أكثر من أسلافه عن الإله الذي يعبده وهو ذلك الإله الظاهر الملموس بدلا من الرموز والإشارات التي كان

يتخذها أجداده كآلهة لهم، وبخاصة الإله آمون رع في طيبة. وقد كانت الظاهرة الخاصة في هذا الانقلاب الديني الذي قام به هذا الملك الفتى هو أن يخضد من شوكة الإله آمون رع في طيبة وكهنته حتى يتمكن من وضع ديانة للدولة تجمع تحت لوائها المصريين جميعا وكل الأجانب الذين يسكنون الأقاليم التي فتحها حديثا تحتمس الثالث وخلفاؤه، وقد كان من علامات سيطرة هذا الإله العالمية الدائمة أن وضع اسمه في خرطوشين مماثلين للخرطوشين اللذين كانا للملك.

ولا شك أن رئيس كهنة طيبة أي الكاهن الأكبر للمعبود آمون قد أخذ ينظر إلى التحسينات والإصلاحات التي أخذ الملك يدخلها على مبادئ الإله الجديد كبدعة دخيلة على الدين الأصلي للبلاد. ولا يبعد أنه اتخذ كل الطرق لإبعاد هذا الملك عن كرسي الملك وإجلاس ملك غيره يكون من المخلصين لإله الدولة آمون ولكنه لم يفلح.

ولا شك أن أمينحتب الرابع كان يخفي تحت ظاهره الضعيف استعداداً وقوة بأس. وقد حسم النزاع بينه وبين كهنة آمون بطريقة قاطعة معجلة: فمنذ السنة السادسة من سني حكمه جرد كل كهنة آمون والآلهة الأخرى من كل ألقابهم الدينية وألغى عبادة هذه الآلهة في معابدها، هذا إلى أنه محا أسماءها من جدران المعابد والآثار وبخاصة اسم الإله آمون فإنه اضطهد حتى في المقابر الخاصة. ولما كان هذا الاسم داخلا في تركيب اسم الملك نفسه أمين–حتب "راحة آمون" فإنه نفي عن نفسه هذا الاسم وأبدله باسم أخون– آمون (بهاء قرص الشمس آتون). ثم عزم على هجر

مدينة الإله آمون أي طيبة وأسس حاضرة ثانية لملكه سماها "آخت-آتون) أفق آتتون، ولا يزال بقايا هذه المدينة موجودة إلى الآن باسم تل العمارنة الواقعة على الشاطئ الأيمن للنيل بين ملوي وديروط.

وقد أقام مدينتين أخريين لهذا المعبود الجديد آتون إحداهما في نوبيا على الشاطئ الأيمن للنيل بعد الشلال الثالث واسمها "جم آتون" ("قوا" تواجه دنقلة) والثانية في سوريا ولم يعرف مكانها بالضبط إلى الآن.

وقد بنى معبد الإله الجديد في أختاتون من جرانيت أسوان، وكذلك شيدت مباني أخرى لأم أختاتون وللأميرة بكيت "آتون خادمة آتون". ثم أنه بنى قصرا لنفسه ومساكن للأمراء الذين ذهبوا معه إلى عاصمته الجديدة أما مقابر الملك وأفراد أسرته وأصدقائه فقد نحتت في الصخر في سلسلة جبال العرب القريبة من عاصمة الملك. وهذه المعابد والقبور هي في الواقع عبارة عن قصائد شعر من الحجارة أقيمت لتخليد ذكرى الإله الجديد وعلاقاته المتينة بالملك وأسرته، وهي دليل على المجهود العظيم الذي بذله هذا الملك لتعميم عبادة "آتون" ومد سلطانه في البلاد النائية من الشلال الثالث إلى أقاصي جهات سوريا وذلك بدون مراعاة لجنسية أي شعب إدعاء منه بأن الإله آتون لم يكن والد المصريين فحسب كما كان الإله آمون، بل كان أباً وأما لكل من خلق، أي الإنسانية بأجمعها. وكان سلطانه عالميا وأبديا لا يشاركه فيه أحد.

والواقع أن هذه الديانة التي أجبر (أخناتون) البلاد على اعتناقها لم تكن ديانة الشعب ولذلك لم تمكث طويلا بعد اختفاء مؤسسها. ومن

المحتمل أن أخناتون مات في السنة السابعة عشرة من حكمه ولم يبلغ الثلاثين من عمره بعد وقد دفن في القبر الذي نحته لنفسه في صخور تل بني عمران ولكن أصدقاءه نقلوا تابوته إلى طيبة فيما بعد وقد عثر الباحثون عليه حديثا في قبر والدته (تي).

وليس لدينا من الحوادث الهامة التي تستحق الذكر في أيامه غير الثورة الدينية التي قام بها. والواقع أن الحملات المظفرة التي كانت ترسل إلى آسيا من قبل الفرعون قد انقضى عهدها ولم يهتم الفرعون بتقدم قوة الحيثيين والخطر الذي يهدد ملكه من جهة هذه الأمة الفتية. ولم يكن له شاغل إلا عبادة قرص الشمس والتقرب إليه بكل الوسائل على أن الوقت الذي يقتصده من عبادة قرص الشمس كان يصرفه بين أفراد أسرته وبخاصة أنه وزوجته وبناته، وقد خرج عن كل التقاليد الدينية في عبادة آلهة. فإنه كان يخرج إلى المعبد ومعه سيدات أسرته حيث كن يشتركن معه في إقامة الصلوات ولم يكن ذلك معروفا من قبل.

ويمكننا أن نفهم من غير عناء أن ثورة دينية حاسمة مثل، التي قام بها (اخناتون) والتي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الدولة المصرية، وهذه الروح الجديدة التي كانت تشاهد في حياة الملك اليومية لابد أن يكون من نتائجها انقلاب محسوس في المظاهر الأخرى وبخاصة الناحية الفنية وهي التي كان يخصها الملك الشاب بعناية كبيرة. وقد شاهدنا أن الفنانين الذين كانوا يحيطون بالملك الفتى في عاصمته الجديدة، قد تخلوا عن تمثيل الملك وأسرته بالطرق المعهودة التي كانت متوارثة منذ بداية الفن المصري، إذ كان الملك لابد أن

يمثل على جدران المعابد أو في الأحجار الصلبة بأشكال محفوظة لا يمكن أن يحيد عنها الفنان قيد شعرة. ولكن في عصر أخناتون بدأ المثال أو المصور يمثل الملك في حالته الطبيعية وفي الموقف الطبيعي الذي كان يجده فيه سواء أكان وحده أم مع أسرته أن المثال أخذ في هذا الوقت يحاكي الطبعة غير مقيد بقيود رسمية. وقد ظهرت كذلك حرية الفنان في رسم الأشياء الطبيعية من حيوان ونبات.

غير أن هذا الفن الجديد الذي يحاكي الحقيقة، كانت تنفر منه النفس أحيانا وبخاصة لأنه يميل بعض الشيء إلى الأنوثة، ولأنه كان يضاد كل المضادة الفن القديم الذي كان متبعا في العصور السالفة.



الفهرس